الجمال فى قصص الأطفال

فؤاد حجازى



لوحة الغلاف للفنان مصطفى عبد المعطى

للثقافـــة كلمـــة

الكتابات النقدية ، والرسائل الجامعية ، التى تناولت أدب الأطفال ، تتحدث عـــن نشأة هذا الأدب ، وتطوره ، وعن رواده ، وعن إحصاء الأعمال ، وتاريخها ، وعـــن أهمية هذا الأدب تربويا ونفسيا وثقافيا ، وما يجب أن يحفل به من قيم .

وفى الندوة التى أقيمت بمعرض كتاب الطفل فى آخر عام ٢٠٠٢ ، ألح الحاضرون على ضرورة الاهتمام النقدى بأدب الأطفال .

ومن قبل ، طالبت أقلام كثيرة ، على صفحات الصحف والمجـــلات ، بضـــرورة تناول هذا الأدب نقديا ..

وليس بخاف أن التناول الجمالى ، سيسهم فى الارتقاء بهذا الأدب ، وسيســـهم فى تنقيته من كثير من الغث التى تطالعنا به مجلات الأطفال ، ويفســـد الذائقـــة الفنيـــة لأطفالنا ..

ولعلنا بتقديم هذا الكتاب، أن نسد نقصا فى المكتبة العربية ، ونؤسس لفرع جديـد فى النقد الأدبي خاصة وكاتبنا له باع طويل فى هذا المضمار .. كتـــب مجموعـــة مـــن المقالات بعنوان " شئ من الفن يا كتاب الأطفال " فى جريدة " الأهـــرام المســـائى " أسبوعيا فى الفترة من ١٩ / ٦ - ٧ / ٨ / ١٩٩٦ ، ضمنها فيما بعد كتابـه " أوراق نقدية " الصادر فى ديسمبر عام ١٩٩٨ . وألقى بحثا بعنوان " القصة والطفـــل " . فى ندوة " أدب الطفل على أعتاب القرن الحادي والعشرين " التى أقامها اتحاد الكتـاب العرب فى بنغازى فى ليبيا فى مارس عام ٢٠٠٢ ، كما سبق حصولـه علـى جـائزة الدولة فى أدب الطفل عام ١٩٩٢ ونرجو أن يكون هذا الكتاب حافزاً لكثـــير مـــن النقاد على الخوض فى هذا الميدان البكر .

الشاعر / مصطفى السعدنى
مدير عام ثقافة الدقهلية

القصة والطفل

تلعب القصة دوراً مهماً فى تنشئة الأطفال . وبما أن كل طفل ، طبقاً لتقدير جون ايكن . يقرأ حوالي ستمئة كتاب ، خلال طفولته ، فلنا أن نتخيل ما يمكن أن يحصل عليه الطفل من هذه الكتب ، خاصة وهو فى سن التكون والنضوج ، حيث كل شئ مُصدق ، وحيث تنزع نفسه ، لتقمص أدوار البطولة ، وللاحتذاء بالمثاليات . والتحلي بالقيم .. إنها الفترة من سن الثامنة .. حتي السادسة عشرة .. بعدها يصير عضواً عاملاً فى المجتمع .

ولكن .. قبل أن نسترسل فى تأثير القصة علي الأطفال ، وهي منتج جمالي ، أليس من حقنا أن نتساءل : هل يدرك الأطفال الجمال ؟!. تجيب الدكتورة وفاء إبراهيم فى كتابها (الوعي الجمالي عند الطفل) ، فتقول : " نستطيع القول أن الطفل ومنذ لحظة ميلاده الأول واتصاله بالعالم يرتكز علي أسس جمالية ، ذلك لأن حاسة إبصاره مستكشفة لكيفيات ما حوله – اللون – الضوء – الليونة – الصلابة – ولقد دلت الملاحظات والدراسات والتجارب علي أن حاستي السمع والبصر من أوائل الحواس العليا التى يستخدمها الطفل فى اتصاله بالعالم (قبل أن يحبو أو يمشي) ، فعيناه تتحركان بسرعة فى متابعة نقطة ضوء ، أو لون أو شكل خاص ، ويلتفت إلي مصدر صوت إيقاعي ، أو ينام علي أصوات أغاني التهنين المعروفة فى التراث الشعبي " ص ١٣.

ولما كان الإدراك الجمالي ، وتنميته ، مرتبطاً بالوعي المعرفي ، فبديهي أنه كلما نما الطفل ، وزادت خبرته بالبيئة المحيطة به ، واستمع إلي العديد من حكايات الجدات والأبوين ، بديهي أن يزداد وعيه الجمالي ، ويستطيع أن يستشعر ما في القصة ، خاصة بعد أن يجيد القراءة ، من حبكة فنية ، وأن يتمتع بما تسلكه شخصياتها ، وبما فيها من حدث ، حتي وإن كان لا يستطيع أن يفصح عن ذلك .

والوعي الجمالي الذي أعنيه ، هو طبقا لما ذكرته الدكتورة وفاء فى كتابها سالف الذكر ص ١٤ : " القدرة علي التذوق أو الشعور أو الانتباه إلي القيمة الجمالية أو الكيفية الجمالية التى توجد فى شئ ما سواء أكان طبيعيا أو عاديا أو عملا فنيا ، فى ذاتها ولذاتها ، دون الاهتمام بصلتها المباشرة بالنفع المادي ، أو تحقيق أي مكسب عاجل أو آجل " .

ولا شك أن القيمة الجمالية ، وقيمتي الخير والحق ، هي مجال القيم الإنسانية، فالحق يقود إلي المنطق ، والخير يقود سلوك الإنسان إلي الأخلاق القويمة .

فالقيمة الجمالية تجعل الإنسان يميز بين الجميل والقبيح سواء فى الطبيعة أو العمل الفني ، أو السلوك الإنساني ، أو فى المنتج البشري المادي والفكري ، كما أن هذه القيمة تقوده للإحساس بالمتعة ، فى كل ما هو قادر علي إثارة الدهشة.

تأمل حال الطفل الذي ينام علي صوت أغاني التهنين ، أو الذي يشعر بالبهجة عند رؤية الزهور ، بألوانها الجميلة ، والطفل الذي تشده حكاية أو قصة مشوقة ، فيستمع إليها فى انتباه ، ويطلب المزيد من القص .

وإذا كنا قد سلمنا أن الطفل يدرك القيمة الجمالية ، فما طبيعة هذه القيمة ، ذاتية أم موضوعية .

يبدأ الطفل بإدراك كيفيات ما يحيط به من لون وصوت ، وشكل ، ومعني ، ذلك أنه يعرف من خلال الجمال أو يتعرف إلي العالم حوله من خلال وقع الجمال عليه ، فإذا كان الطفل قادرا علي التصنيف خلال سنواته الأولي ، أي تجميع الأشياء (المكعبات الملونة مثلا) علي أساس ميزة مشتركة ، كاللون ، أو الشكل الهرمي ، أو المكعب ، فالطفل بذلك يقدر القيمة الجمالية ضمنا ، فهو قد صنف وميز من خلال القيمة الجمالية ، أي اللون الفاتح ، أو الهادئ ، أو الصوت الرفيع ، أو الشكل المثير (فى حالة اللعبة مثلا) .

ومن هذا يتضح أن وعي الطفل الجمالي فى هذه المرحلة ذاتي ، من حيث وقع صوت أو شكل الشئ عليه ، ومدي رغبته فيه . وبعد أن يتعرف الطفل علي بيئته ، أي استئناس الوجود وألفته ، ومع ارتقاء معارفه ، وتمكنه من القراءة والكتابة ، فإن وعيه الجمالي يرتقي ليدرك الموضوعي ، والمجرد .. والذي يتجاوز قدرات الإنسان العقلية والجسمانية . ويحس بالمتعة في حكايات الخيال والأماني التى تتجاوز الحياة الواقعية .

بعد أن اطمأننا إلي إدراك الأطفال للقيمة الجمالية ، وعرفنا طبيعتها ، ينبغي علينا أن نعرف موقفهم من الأعمال الأدبية والفنية .

يقسم بعض علماء النفس الأشخاص من الناحية المرتبطة بنظرتهم الفنية ، إلي أربعة أنواع ، طبقا لما جاء فى كتاب أحمد نجيب (فن الكتابة للأطفال) نقلا عن د. محمد خليفة بركات – الأسس النفسية لتقدير الجمال ، صحيفة التربية - يناير ١٩٥٧ ص ٧٠ – ٧٩ .

١- " الترابطى " : يقدر الناتج الفنى لما يثيره فى ذهنه من ارتباطات وذكريات ، فإذا رأي زهوراً ذكرته بالربيع ، وإذا رأي اللون الأحمر ذكره بالدماء أو النار ، وينبع الجمال من إثارة ما يراه لذكرياته ، ولذلك فكلما تكرر سماع أغنية مثلاً ، تزداد جمالاً ، لأنها تستدعي ذكريات مختلفة إلي النفس ..

٢- " الفسيولوجي " : الجمال ينبع عنده ، من مقدار ما يثيره العمل علي النواحي الجسمية والحسية فاللون الأحمر مثلاً ، يجعله يقظاً ، أو منتعشاً ، والأغنية لاتستدعي ذكريات .. بل ربما جعلته يسترخي عند سماعها .

٣- " الإندماجي " : وهذا الشخص عندما يقرأ قصة أو تُتلى عليه ، يتصور نفسه بطلها ، أو مشاركاً فى أحداثها ، ويندمج فى الموقف .

٤- الموضوعي : وهذا الشخص يتقبل القصة أو العمل الفني بشكل موضوعي ، كالمشاهد المحايد لا يتأثر كثيراً لما يحدث فيها ، أو لأبطالها .

ومن الواضح أن الأطفال ، فى الغالب أبعد ما يكونون ، عن النوع الموضوعي ، حيث أن ثقافتهم ، وخبراتهم ، لا تؤهلهم للانفصال عن ذواتهم ، وتقبل الأشياء بموضوعية ، وأن الأطفال أقرب ما يكونون إلي النوع الاندماجي، حيث تستهويهم الأحداث ومواقف الأبطال .. وهذا يضع مسئولية أخلاقية علي كتاب القصة لسرعة تأثر قرائهم ، بما يحمله العمل من قيم فنية وموضوعية .. كما أن كثيراً من الأطفال من النوع الترابطى ، وهذا يفسر ولع الأطفال بقراءة القصة التى تعجبهم مرات عديدة ، أما الشخص " الفسيولوجي " فهو يقع فى مرتبه وسطي .

وقبل أن نعرج علي دور القصة فى بناء شخصية الطفل ، علينا أن نضع فى الحسبان أن القصة ليست الأدبية فقط ، بل هي أيضا نواة العمل المسرحي والفيلم السينمائي ، والتمثيلية الإذاعية والتليفزيونية ، والقصص المصورة (شخصيات الكرتون المتحركة) وسيناريو القصص المصورة فى مجلات الأطفال ، كما يجب أن ننتبه إلي تنوع القصة وما فيها من ثراء : الفكاهية والخيالية والأساطير والخرافة و التاريخية ، وقصص المغامرات والمشاهير والعظماء والمخترعين ، وقصص الحيلة والمفارقة والقصص الشعبي وقصص الخيال العلمي وقصص استنطاق الحيوان والجماد وأنسنته . والإمكانات الهائلة التى يتيحها الكمبيوتر ، والتقنيات الحديثة فى عمل قصص مصورة سينمائيا تنطلق بالخيال إلي عوالم

جديدة ومتجددة .

ودون الدخول فى تفصيل جوانب شخصية الطفل ، يهمنا فى المقام الأول الأنا الأعلي (الضمير أو الرقيب النفسي) ، الذي يمثل جملة المعايير والقيم التى يستخدمها الفرد فى الحكم علي دوافعه ورغباته ، ومن خصائصه أنه يبدأ فى التكون من سن مبكرة ، وما يكتسبه الإنسان فى طفولته يظل ذا أثر عميق فى حياته كلها ، مهما أصابه من تعديل فى مراحل العمر المختلفة ، وسماع الحكايات فى هذه السن يقوي الإحساس بالجمال ، وبالتالي يقوي نزعة الخير ، ويدفع النفس إلي التوازن والانسجام ، ويستمر دور القصة ، خاصة بعد أن يتعلم الطفل القراءة ، فى بناء الشخصية .. والرد علي الأسئلة التى تواجهه كلما نضج، خاصة فى مرحلة المراهقة ، والرغبة فى الإحساس بالاستقلال ، والذات ، ومواجهة عشرات الأسئلة التى تزيد حيرته ، تجاه جسده والعالم ، وعدم سعيه لطلب المساعدة ، لنزعة الاستقلال النامية .. هنا تلعب القصة ورواية الأطفال دورا مهما فى بناء شخصية سليمة ، لما تحويه من خبرة بالجسد وبالعالم ، وبما فيها من إشباع لبعض طموحاته ، ولما فيها من تحفيز لمزيد من المعرفة ، كما تعمل علي تصحيح ما قد يكون البيت قد وقع فيه من أخطاء ، أو ما تكون العادات والتقاليد الاجتماعية البالية ، والمتخلفة ، قد أحدثته من أثر مناف للعلم والتقدم .

كما تسهم القصة ، شانها شان الفنون جميعا ، فى سد بعض احتياجات الطفل العاطفية ، وری تشوقه إلي كل ما هو جميل ، كما تتيح للأولاد والبنات الإفصاح عن رغباتهم ونوازعهم المكبوتة ، وإشباع ما لديهم من طاقات ، بشكل سليم ، بدلا من التعبير عنها فى اضطرابات سلوكية ، كالتدخين ، والسرقة ، وتحطيم الأشياء فالقصة تعيد الثقة بنفس القارئ ، وربما عالجت بعض حالات الخوف والخجل التى تعتري الطفل فى هذه السن ، خاصة إذا كان غير متوائم مع مجتمعه ، سواء فى المدرسة أو الشارع (فللأطفال ألياف خلقية متينة . وهم يستطيعون ان يتغلبوا علي الأحزان والمحن فى القصص وخصوصا إذا كانت علي مستوي بطولي رفيع . وقد تساعد المعالجة القصصية علي تلقيحهم فى تحمل الواقع) " جون ايكن ص ٢١١ ـ كيف تكتب للأطفال .

وإذا كان الأطفال بحاجة أن يحصلوا علي مغزي وجودهم الباطني وعلي الحلقات البدائية التى تربطهم بالماضي غير المستكشف ، مما يقرأون من قصص، كما تقول جون ايكن فى صفحة ٤٦ من كتابها السابق الإشارة إليه ، فيمكنني ان اضيف : وأن الأطفال بحاجة أن يحصلوا علي مغزي لما يحدث فى مجتمعهم . وتحضرني بهذا الخصوص تجربة لي مع الأطفال فى قصر الثقافة بمدينة المحلة الكبري فى صيف عام ١٩٩٨ م ، كنت قد وزعت عليهم روايتي

" شجرة الدر تتلقي الأمانة " وهي عن معركة المنصورة ، التي انتصر فيها الشعب المصري علي الفرنسيين وأسروا ملكهم لويس التاسع عام ١٢٥٠ م ، وإذا بالنقاش يستطرد إلي الواقع العربي الإسرائيلي .. ومتى نحرر فلسطين من أيدي الإسرائيليين . كان ما أثار دهشتي .. كيف تسني لأولاد تتراوح أعمارهم بين التاسعة والرابعة عشرة ، أن يثيروا موضوعاً كهذا ، وكيف استوعبوا مفردات الصراع الرئيسية ، ويسألون عنها .. خرجت من تفكيري .. أن المشاكل المجتمعية ، وخاصة القومية ، سواء علي المستوي المصري ، أو المستوي العربي العام ، يكاد يرضعها الأولاد والبنات مع لبن أمهاتهم ، وأنهم يعايشون مفرداتها فى حياتهم اليومية ، وأنهم يتنفسون حقائق الصراع ، كما فى حالة العرب واسرائيل ، وأنهم كلما كبروا مرحلة ، كلما نضجت القضية فى رؤوسهم أكثر . وأن هذا بالتالي يطرح علي الكتاب مسئولية كبيرة ، ألا يتجاهلوا القضايا القومية فى كتاباتهم للطلائع ، فهم يتطلعون شأنهم شأن الكبار لمعرفة المزيد عن قضايا وطنهم وكيفية حلها .

وإذا كنت أدعو لعدم تجاهل القضايا القومية فى الكتابة للأطفال، بحجة أنهم صغار ، فإنني أدعو لعدم الحرج فى تناول أي موضوع سواء جنسي أو ديني ، متعللين بنفس الحجة ، أو بحجة أخلاقية متهافتة (هذا لا يصح تناوله) فما لا يجده الطفل عندك ككاتب سوف يجد علي قارعة الطريق ، غرز الفيديو التىتذيع أفلام الجنس والهوائيات التى تبث ليل نهار ، وتذيع أيضا الأحاديث الدينية .. فأيهما أفضل .. أن يأخذ الطفل ما يتطلع إليه بشكل إنساني وراق ، أم يأخذه بشكل فج ومبتذل .

كما أدعو أيضا ، من أجل المستقبل إلي نوع جديد من القصة أسميها قصة "التفكير العلمي " ، وهي بخلاف قصة الخيال العلمي ، التى تنطلق بعد أن ينتهي مفعول قانون الظاهرة العلمية المعاصر ، إلي أجواء ، تكاد تكون فانتازيا ، حالمة بأفاق خيالية ، لم يتطرق إليها العلم بعد .. وهي بخلاف ما فعله الكاتب صنع الله إبراهيم في رواياته وحكاياته العلمية الرائعة ، مثل رواية " عدما جلست العنكبوت تنتظر " وغيرها الصادرة عن دار " الفتى العربي" ببيروت فى عقد التسعينات.، ثم توقف بعدها للأسف ، حيث كان صنع الله يقدم الظاهرة العلمية فى شكل قصصى جذاب ، لكنه لا يخرج عما يحدث فى الظاهرة . ما أدعو إليه قصة عادية ، سواء علي لسان البشر أو الحيوان ، لكن تعتمد حبكتها علي الحقيقة العلمية ، وتفك عقدتها طبقا للعلم .. فهذا - فيما أري - يساعد علي التفكير العلمي، فى الظواهر المحيطة بنا ، وما قد يقابل القارئ من إشكاليات ، كما يساعد علي نبذ الخرافة ، والتفكير المستقبلي . ومثال ذلك قصة " رسالة الظباء" من مجموعتي " زفاف تحت الماء ".دار الهلال بالقاهرة عام ١٩٩٩. وقد قرأتها

فى قصر ثقافة المحلة الكبري لمجموعة من الأطفال من سن الثامنة حتي الخامسة عشرة تقريبا ، وراندي شينان :

مدي انجذاب الأطفال للقصة .. أي هل هي مشوقة ليواظبوا علي السماع ولا ينشغلوا عن القارئ بأي شئ .. حيث كانت القراءة بصوت عال من أحدهم .

والشئ الثاني ، مدي استيعابهم للحقيقة العلمية التى تستند إليها حبكة القصة..

ولقد تحقق هذا بأكثر مما توقعت .. الانجذاب ، والاستيعاب ، فكررت التجربة مرة أخري فى مجتمع مختلف فى قصر ثقافة الطفل بطنطا .. فقرأت نفس القصة مع عدة قصص أخري من نفس المجموعة ، أختار منها قصة " إنقاذ نملة " والمنشورة أيضا في مجلة " التقدم العلمي " بالكويت العدد ٢٦ عام ١٩٩٩ وكانت النتيجة كسابقتها . والمدينتان تقعان فى وسط دلتا مصر .

رسالة الظباء

" فى شمس الصباح الهادئة ، صعدت بعض التماسيح إلي الشاطئ ، لتفقد حال البيض ، الذي تركته بالأمس ، ودهشت عندما وجدت بعض التراب ، قد أزيل من فوق الحفر التى بها البيض . غضبت التماسيح ، وأسرعت تضع التراب فوق البيض ، وحين تفقدت المكان ، لمحت آثار حوافر الظباء .

تركت التماسيح تمساحين لحراسة البيض ، وأسرعت إلي الماء ، لملاقاة باقي التماسيح ، ومشاورتها فى الأمر .

قال أحد التماسيح غاضبا :

- لابد من القضاء علي الظباء التى تقترب من الشاطئ .

زمجرت التماسيح وفتحت أفواهها ، مبرزة أسنانها الحادة .

قال قائد التماسيح :

- أخبرنا أولا عن حقيقة ما حدث ؟!

تردد التمساح الغاضب قليلا ، ثم قال :

- كان التراب فوق البيض ، بما يسمح بدرجة حرارة معتدلة ، تجعل البيض يفقس ذكورا وإناثا ، وجدنا التراب قد أزيل بعضه ، بما يسمح بدرجة حرارة أقل تجعل البيض يفقس ذكورا فقط .

فكر القائد ، قليلا ثم قال :

- لا بد من القضاء علي الظباء حتى لا تتدخل فى أمورنا .

زمجرت التماسيح ، محبذة ..

قال تمساح صغير :

- أعتقد أن الظباء ، بفعلتها هذه تود إبلاغنا رسالة ما .

أطرق القائد بعض الوقت ، ثم رفع رأسه وقال :

- حقا .. كيف لم أنتبه إلي ذلك ؟

استمر التمساح الصغير :

- لو كانت الظباء تنوي بنا شرا ، لوضعت كثيرا من التراب فوق البيض فتزيد درجة الحرارة ، ويفسد البيض .

قال التمساح الغاضب :

- إذن لنفسد تدبير الظباء ، ونزيد من درجة الحرارة قليلا عما اعتدنا ، وبذلك يفقس البيض كله إناثا لتزيد أعدادنا فيما بعد .

زمجرت التماسيح ، ولوحت بأفواهها المفتوحة في الهواء . هدأها القائد بإشارة من رأسه ، وقال :

- رسالة الظباء واضحة .. تود أن يقل عددنا .. ليخف تواجدنا علي الشاطئ ، لتنعم بالأمن والأمان .. فتلعب علي الشاطئ ، حيث الزهور والحشائش ، وتأخذ حاجتها من الماء .

قال أحد التماسيح :

- لكن وجودنا علي الشاطئ يمنع الأسود والنمور والضباع من الاقتراب ، فتتمتع الظباء بالأمان .

قال تمساح آخر :

- تتمتع الظباء بالأمان ، لنلتهمها نحن .

ضحكت التماسيح ، وتمايلت علي جنوبها في الماء .

قال القائد :

- أري أن نتفهم الرسالة .. ونتيح للظباء بعض الوقت لتنعم بالشاطئ والماء .

أخذت التماسيح تفكر في الأمر .. وأبدي أحدها موافقته ، وبعد تردد تبعته أغلب التماسيح .

ساعة العصاري ، لمحت التماسيح الظباء تقترب من الشاطئ .. انسحبت إلي

عمق النهر .

فهمت الظباء الإشارة ، فتقدمت فى حذر من الماء ، وحين لم تسبح التماسيح في اتجاهها ، اطمأنت ، وشربت حتي ارتوت ، وأخذت تمرح بالقرب من الشاطئ حيث الحشائش الخضراء ، والزهور المتنوعة الألوان .

إنقاذ نملة

تفقدت الملكة عش النمل ، اطمأنت لخروج جامعات الرحيق السكري من الأزهار . وحين وجدت إحدي الجامعات قد تخلفت ، سألت عن السبب ، أجابتها ابنتها الصغيرة أنها مريضة .

اصطحبت ملكة النمل النملة الصغيرة ، إلي ركن خازنات العسل ، حيث وقفت بعض النمل وقد انتفخت بطونها ، من جراء تخزين العسل فيها ، فالنمل بعد جمع الرحيق ، وتحويله إلي عسل ، خصص بعض الخازنات ، للاحتفاظ به حتي يمكن استخدامه فى فصل الشتاء ، حين يحول البرد القارس ، دون الخروج من العش .

أمرت الملكة بصرف حصة من العسل ، لتغذية الأم المريضة .

حملت البنت العسل لأمها ، لكن الأم اعترضت قائلة :

- لا فائدة .. أنا مصابة بعسر هضم .

أخبرت البنت الملكة .. فكرت قليلا وتمتمت :

- لابد أن تتغذي . لكن كيف ؟!

اصطحبت الملكة النملة الصغيرة ، وذهبت للإطمئنان علي باب العش . وبالها مشغول بالبحث عن حل ، لإنقاذ النملة المريضة .

لم تجد حراسة علي باب العش ، فتعجبت ، ولم يطل عجبها ، سرعان ما لمحت حارسة تترنح ، وتقاوم السقوط . خفت الملكة لمساعدتها ، تعاونها النملة الصغيرة .

سألت الملكة :

- أين زميلاتك فى الحراسة ؟

استردت الحارسة المترنحة أنفاسها بصعوبة ، وقالت :

- التهمها العنكبوت .

سألت الملكة :

- وماذا بك ؟

ردت الحارسة :

- حقنني اللعين .

رفعت الملكة رأسها ، وقالت فى أسف :

- عنكبوت " النفيلا " إذن ؟!

أومأت الحارسة بالإيجاب ، فأدركت الملكة سبب ترنحها ، فهذا العنكبوت ، قبل أن يلتهم فريسته يحقنها بعصارة هاضمة ، تحلل أجزاءها الداخلية فتضعف مقاومتها ، ويلتهمها بسهولة .

وسرعان ما سقطت الحارسة فاقدة الوعي . حزنت الملكة ، واستدعت رئيسة الحارسات .

شددت علي ضرورة مراقبة مدخل العش والقبض علي العنكبوت " النفيلا ". وحذرت من لدغاته ومن شباكه ، ذات الخيوط الحريرية ، خشية أن يقع النمل فيها. ولم يمض وقت كثير ، حتي أخبرت رئيسة الحارسات ، الملكة ، بوقوع العنكبوت " النفيلا " فى قبضتها ، وانتظرت أمرها . أشارت الملكة ، بالقضاء عليه . فجأة اعترضت النملة الصغيرة . دهشت الملكة . فقالت النملة الصغيرة :

- لماذا لا نستفيد من عصارته الهاضمة ؟!

فكرت الملكة قليلا ، وأدركت ما يجول في عقل الصغيرة .

أمها تعاني من عسر الهضم ، وعندنا من يفرز عصارة هاضمة ، لا نستفيد منها.

تبادلت الملكة ، ورئيسة الحارسات النظرات . وقالت الرئيسة وقد تفهمت الأمر :

- فكرة .

تساءلت الملكة :

- لكن .. كيف ؟!

قالت النملة الصغيرة :

- نأخذ كمية صغيرة من العصارة ، تكفي لهضم الطعام فقط .

سألت الرئيسة :

- وكيف نفعل هذا ؟!

أطرقت الملكة مفكرة بعض الوقت . رفعت رأسها وابتسمت قائلة :

- نطلب من العنكبوت أن يحقن النملة خازنة العسل بكمية ضئيلة من عصارته الهاضمة . وبعد أن يصبح العسل مهضوما ، نعطيه للأم المريضة .

فرحت النملة الصغيرة ، وقد بات إنقاذ أمها وشيكا .

لكن رئيسة الحارسات قالت فى وجوم :

- وكيف نطمئن لهذا العنكبوت . وأنه لن يزيد من جرعته الهاضمة ؟!

قالت الملكة :

- إذا لم يفعل ما نريد ، لن ينجو بحياته .. كما أننا سنعرض عليه بعضا من العسل ، لغذائه ، بدلا من التهام النمل .

عرضت الملكة الأمر ، علي العنكبوت المقبوض عليه ، فوافق .

وحين اصطحبت النملة الصغيرة ، أمها ، وقد بدأت تتعافي ، لشكر الملكة .

قالت الملكة :

- لا تشكريني ..بل اشكري بنتك الصغيرة .

* * *

ويتميز مجتمع المحلة الكبري بكثرة الجمعيات الدينية السلفية ، وبوجود أكبر مصانع للنسيج فى مصر ، وهى قطاع عام، أي أن الأولاد موضوع التجربة أبناء هؤلاء العمال .. وأبناء التجار الصغار ، خاصة الأدوات المكتبية ، والمهنيين ، الذين تحف بها أفكار تلك الجمعيات الدينية ، أما طنطا فمدينة أكبر من المحلة الكبري ، ويميزها الطابع التجاري (رأسمالية كبيرة) والصناعي (مصانع الزيوت والصابون) وهى مركز مواصلات فى وسط الدلتا وبها قناة تليفزيونية ، ولم أجد أي فارق فى تقبل واستيعاب الأولاد للقصة العلمية ، بين المدينتين .

وأعزو هذا النجاح إلي التوفيق ، فى الحبكة الفنية ، المقدمة فى إطار خيالي وليس إلي الحقيقة العلمية فى حد ذاتها . ويحضرني قول الدكتور يوسف مراد فى كتابه (علم النفس فى الفن والحياة ص ٢٩ ، نقلا عن كتاب الدكتورة وفاء إبراهيم ص ٣١ : " هناك حقيقة ثابتة لم يفطن إليها المربون إلا أخيرا ، أن الطفل فنان بطبعه ، مهما كان مستوي البيئة التى يعيش فيها حقيرا ، يبدو أن هذا يعني أن الوعي الجمالي عند الطفل ليس فانتازيا أو شيئا ترفيا ، أو شيئا ثانويا ، بل هو أساسى فى فطرته ، كما أنه ملك للفقراء والأغنياء ، وبذلك فإن الوعي

الجماعي أعدل الأشياء قسمة بين الأفراد ، وكلما عنينا برصد هذا الوعي وترقيته وتوسيع مجاله لدي الطفل لاستطعنا تطوير عملية التعليم من خلاله " .

وقد انعقدت مؤخرا ندوة فى جريدة (الأهرام) عن فقر الخيال ، وتنبه إلي أنه سبب تخلفنا عن الغرب . تقول الدكتوره يمني طريف الخولي فى هذه الندوة :

" وفي المرحلة الكلاسيكية كان الظن أن المنهج العلمي هو النقيض المنطقي لأي فكر خيالي .. فالعلم هو المقابل للخيال .. أما فى المرحلة المعاصرة الأن فقد اختلف الأمر .. لم يعد الإنسان يجرب ويصعد من التجربة إلي القانون بل علي العكس .. فالعالم يبدع الفرض ثم يهبط من الفرض إلي التجربة وأصبح فى النظرية المعاصرة أن للخيال دور فى خلق الفرض العلمي تماما كدور الخيال فى خلق العمل الأدبي والفني وبتعبير - كارل بوبر فيلسوف المنهج العلمي - فإنه فى العبقرية الخلاقة .. يقف مايكل انجلو ، شكسبير ، بيتهوفن ، علي قدم المساواة مع جاليليو ونيوتن واينشتين . وكل واحد من هؤلاء العباقرة كان ذا خيال وقدرة علي الافتراق عن الواقع ووضع تصور معين وقانون معين لم يتراء لغيره . " .

ثم تقول :

" ومثلا ما هي الفوراق بين نظرية النسبية ونظرية نيوتن .. فإنه فى عالم نيوتن يكن وزن الكتلة ثابتا .. أما فى عالم اينشتين فقد تخيل أن وزن الكتلة يتغير مع السرعة .. وقد انطلق فى هذا الخيال وصاغة فى معادلات رياضية دقيقة . وثبت أن هذا صحيح تماما ، إذن فالخيال هو القوة المبدعة الخلاقة فى العلم .. وهو ضروري للإبداع والإضافة فى العلم وهو يختلف عن الخيال الفني فى المعايير التى يحتكم إليها ..فالخيال الفني يحتكم إلي معايير جمالية أما العلمي فإن معاييره تجريبية ومنطقية ورياضية " .

وليس معني دعوتي ، لتقديم قصة التفكير العلمي ، أنني أدعو إلي نبذ الخيال وتقديم الحقيقة العلمية المجردة فى إطار مباشر . لقد قدمت قصتي ، فى إطار خيالي ، ولعل هذا من أسباب استجابة الأطفال لها .

وهناك من يتساءل .. هل تجدي قصص علاء الدين ومصباحه السحري وافتح ياسمسم والحكايات الشعبية فى عصر الفضاء والأقمار الصناعية ، أي ماذا يجدى خيال مثال هذه الحكايات أمام انجازات العصر التي تفوق الخيال ، مثل الصواريخ عابرة القارات والهبوط علي القمر والفيمتو ثانية التى مكنتنا من رؤية مكونات الخلية وهي تعمل .

ويرد الأستاذ / عبد التواب يوسف فى كتابه " الطفل والموروث الشعبي ص

١٠٢ : " إن الخيال يشد الأطفال ويجتذبهم ويجب علينا أن نعطيه لهم كي نعاونهم علي تقدير الأحكام علي الأشياء .. ما الخطأ ..وما الصواب ؟ ماذا يفعل الطيبون وما يفعل الأشرار ؟ إن الطفل يلقي بهذه الأسئلة لأنه يريد أن يلعب دوره في هذا العالم . إنه يريد أن يعرف المبادئ والقيم التي يحدد في ضوئها تصرفات الآخرين وميولهم . إن الأطفال لا يحكمون علي الناس من حولهم وفق كلماتهم المعسولة بل نتيجة لتصرفاتهم ومن هنا يأتي تقييمهم للأشخاص. إن الأطفال يحبون ابتكار المواقف والأحداث التي يتعين عليهم وعلي أهلهم أن يتغلبوا عليها . إن خيال العقل دنيا واسعة بلا حدود ، تعيش فيها صور وشخصيات وأحداث ومرئيات وإذا نحن لم نخلق له هذه الدنيا ، ابتكرها وأوجدها!.. إنها دنيا يستبقيها الطفل مما يسمعه من قصص أو حكايات ، وأحيانا يخلقها ، ويعيد فيها تنظيم العالم كما يتراءى له ، وكما يحلو له أن يصوره وقد استطاع كثيرون أن ينفذوا إلي خيال الطفل ويخلقوا فيه ما يتمني بالفعل أن يكون موجودا، فالطفل مثلا يلاعب القط ويحدثه ، وأمنية الطفل أن يرد القط عليه ، وينطق الكلب الصغير ..ويخرج الفأر من مكمنه ليلاعبه ويتبادل معه الحديث " .

وإطلاله صغيرة علي قصة " هاري بوتر " تدعم ما نذهب إليه . فمؤلفتها ج.ك. رولنج ، بريطانية أي من بيئة الثورة الصناعية ، ووزع من أجزائها الأربعة ثلاثون مليون نسخة في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا واليابان ، وهي دول تقود التقنية الصناعية ولها السبق في التقدم العلمي ، ونبذ الخرافة ، ومع ذلك أقبل أبناؤها صغارا وكبارا علي تلك القصة ، بل ودفعوا مبالغ طائلة لمشاهدة الشريط السينمائي المأخوذ عن الجزء الأول من هذه القصة .. وتقاضت المؤلفة خمسة وسبعين مليون دولار نظير إخراجه للسينما وكسبت ستين مليون دولار ، مقابل حق نشر كتبها في عام واحد .

معني هذا أنه مهما كان التقدم العلمي والتقني ، فلن يستغني الإنسان عن الخيال الذي يبعث علي الدهشة . إن الإنسان ظل خلال عشرة آلاف سنة ، منذ بدء التاريخ غير قادر علي تفسير الظواهر الطبيعية ، إلا عن طريق الأسطورة والحكاية .. وهنا نما خياله ، واتسعت مداركه ، أما التفكير العلمي فهو حديث جدا، لا يتجاوز ١% من تاريخ الإنسان ، وهو يقود إلي التفكير المنطقي ، وإلي ما يمكن التنبؤ به ..

إن التعجب مرحلة أرقي في الرقي الإنساني ، بعد رحلة التفكير ، فهو الذي يقود إلي البحث عن الأسباب والعلل والتفسير (العلم) وحين تزداد القدرة علي التعجب تنتج القدرة علي الإختراع ، واتساع الخيال يقود إلي تمثل الكمال والسمو عن المادي من الأمور ..

يقول الدكتور عبد المجيد مأمون فى ندوة الأهرام : " بالنسبة للأطفال ينبغي تنمية الخيال بلا قيود لامتلاك القدرة علي التخيل " .أي أنه لكي يتقدم العلم ، لابد أن يتسع الخيال .. والذي يعمل علي اتساع الخيال .. هي القصص والحكايات التى تثير الدهشة .. وهذا يفسر لماذا أقبل أبناء أوربا وأمريكا واليابان ، رغم علميتهم ، علي قراءة قصة تتحدث عن السحر والسحرة ..

إن بطل القصة ، تلميذ يبحث عن حجر الفلاسفة ، الذي يطيل العمر ، ويحول المعادن غير النفيسة إلي ذهب ، لكن الأستاذ ينصح تلميذه ، أن حياة الإنسان لا تقاس بطول العمر ، ولكن بما يتم فيها من عمل عظيم (القيمة) ، وأن الذهب ، أي (المال) ليس هو وحده الطريق إلي سعادة الإنسان .. بل الحب هو الطريق إلي ذلك .. ورغم ما في القصة السينمائية من إبهار في تقنية الإخراج والخدع السينمائية ورغم ما في القصة المقروءة من تشويق عالم السحر، ومغامرة البحث عن حجر الفلاسفة، فنحن نري أن المشاعر الإنسانية ، التي حفلت بها نفوس التلاميذ زملاء البطل ، هي الأكثر أثراً في المتلقي .. التآزر بين التلاميذ .. الخوف .. الشجاعة .. التردد قبل الإقدام ..

ولعل هذه المشاعر الإنسانية ، هي التى ساعدت علي إنتشار هذه القصة ، ودعنا لا ننزعج كثيراً من الجو الخيالي (السحر والسحرة) ، فالطفلة التى تحدث عروستها متقمصة دور الأم أو المدرسة ، وتلقي إليها بالأوامر والنواهي، والولد الذي يركب عصاته علي أنها حصان ، ويناولها ما يتوهم أنه برسيم ، سرعان ما ينزعان نفسيهما ، بعد اللعب من الوهم، ويعودان إلي أرض الواقع ، ويتعاملان مع من حولهما بواقعية شديدة .

إنها قواعد للعب .. يدركانها جيداً ، ويشبعان نفسيهما .. ومع أنه لا خوف هناك لا أحبذ استخدام مفردات الجني والعفريت والسحر فى الأعمال الأدبية الجديدة ، ففي المنجزات العلمية الحديثة ما يفوق تلك المفردات من حيث الإبهار والدهشة .. وإذا كان الجني يساعد الخيال علي السباحة .. فى تلك المناطق الغامضة من الطبيعة والنفس .. فإن إمكانات الصواريخ والذرة تفوق فى سرعتها وتحولها وما تستطيع أن تفعله إمكانيات الجني فى السرعة والترحال وتحقيق الأماني الغامضة للإنسان . المهم هو كيفية توظيفها بشكل يثير الدهشة ويثرى الخيال . فالخيال ضرورة لكي يتقدم العلم ، ونظرة علي الخيال بالنسبة للطفل فى العهد الفرعوني ، قد تجعلنا ندرك أحد أسباب تقدمهم ..

استخدم المصريون القدماء التمائم (الأحجبة) التى تحفظ الطفل من كل شر ، وكان يُكتب ضمن التعويذة فى التميمة السخرية من الشرور البشرية والاستهزاء والاتهام ، وهناك البلايا من عمل المردة ، وبعض التمائم لوقاية الطفل من عمل

الأطباء ، أو الأرواح الهائمة حول البرك والمستنقعات والأراضي السبخة ، فهذه الأرواح شبيهة بالجنيات فى مفهومنا المعاصر .

تزعم إحدى هذه التمائم : "..أن واحدا من الجن ـ ذكرا كان أم أنثى ـ يدخل البيت متلصصا (وأنفه فى قفاه ، ووجهه فى ظهره) ، وذلك كي لا يعرف . فهل دخوله بغرض تدليل الطفل وتقبيله أو بغرض ايذائه وخطفه ؟ ذلك لا يهم لأن الاحتياط واجب ، فيجب عدم السماح للجني بالدخول ، أصلا . ويساعد على الوقاية فى هذه الحالة استخدام البرسيم والثوم والعسل وذيل السمك وعظام فك البقرة ، وظهر مجثم الطائر النهري ! " ص ٢٩ ، ٣٠ ـ الطفل المصري القديم.

إن كاتب التميمة ، يعرف أنه لا يوجد جني ، وهو يصرح أن المهم هو الاحتياط ، وعدم السماح للجني (المجهول) بالدخول ، أي اتقاء الغفلة والإهمال، وانظر للصورة الخيالية الجميلة (أنفه فى قفاه، ووجهه فى ظهره) . إن الكاتب لم ير جني من قبل حتي يصفه ، ولكم ما صوره هو الغافل ، الذي كأنما أصبح وجهه فى ظهره ، وأنفه فى قفاه ، أي لا يري ، ولا يشم ما أمامه .

ورغم الخيال ، تحذر التميمة من الشرور البشرية ، وتوكل عمل البلايا إلي المردة . فحين لا يكون الأمرمعلوما ، يكون بالضرورة مجهولا ، وعندما يتضخم المجهول ، فهو خطر كالمارد الجبار ، والأرواح الهائمة (الجن والعفاريت) حول المستنقعات والأراضي السبخة ، أي فى الأماكن غير المروضة بالفعل الإنساني ، للانتفاع بها ، فالإنسان معرض لأن يصاب فيها بالشر . والتميمة تقي من عمل الأطباء ، القصد ـ فيما أري . الطبيب الجاهل ، قليل الخبرة .

وعندما يشب الطفل عن الطوق ، ويكون معرضا للتجنيد ، حيث كان يتم في سن صغيرة : " كانت حياة الجندي العادي توصف فى (المختارات) وصفا فجا بذينا ، لتحول اهتمام التلاميذ إلي فنهم بدلا من اغراءات حياة الجندية الجذابة ، لكن الصورة لا يبدو أنها كاذبة تماما ، وإن كان هناك تضخيم لمتاعب الحياة العسكرية " ص ١٠١ - الطفل المصري القديم .

ومن تلك (المختارات) التى كانت تدرس فى مستوي يشبه المدرسة الثانوية الأن ، صفحة ١٠١ ، ١٠٢ ـ الطفل المصري القديم :

" سأحيطك علما بأحوال الجندي

وكل ما يؤديه من أعمال .

إنه يجند ومازال طفلا بطول الشاخص (متر)

وتحدد إقامته داخل الثكنات ،

الموزعة بين الفرق ،

برئاسة الضباط

فيصير سجينا مقيد الحرية

حتى يصير جنديا .

ثم يطرح ويعاني بأشكال مختلفة (كناية عن كثرة العقاب)

يؤخذ الرجل ليصير جنديا ،

ويساق الفتي ليجند ،

والطفل يربي ليؤخذ من حضن أمه

فإذا بلغ مبلغ الرجال تكون عظامه قد تضعضعت " .

ومن نصيحة مري كارع :

" عشرون عاما يقمع فيها الشباب رغباته

(ثم) يحول المجندون إلي سلك (الاحتياط) "

لجأوا إلي الخيال والمبالغة حتي لا تطغي الحياة العسكرية علي الحياة المدنية، أو بلغتنا حتي لا يسيطر العسكر علي المجتمع المدني . يتم هذا إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة ، التى فى مطلع حكمها تم تحرير الجزء الذي احتله الهكسوس من مصر ، والتى فى عهدها بدأت مصر فى تكوين الإمبراطورية ، فغزت الشرق الأدني وتوغلت شمالا وشرقا ، وارتفع قدر الجيش فأصبح القوة الثالثة فى البلاد بعد الفئة الحاكمة ، وفئة الكهنة .

لكنه الخيال الموجه للأطفال والصبية ، لإعادة التوازن إلي المجتمع . " لابد أن كثيرا من التلاميذ وجد الحياة المدرسية مملة لا تصلح إلا للضعفاء . وكانت الوظائف الحربية ، وروعة الحملات فى الدول الأجنبية ، واحتمال لفت نظر الفرعون إلي أعمالهم البطولية ، كل ذلك أكثر إغراء بكثير . لذلك خصص الكثير من مواضيع (المختارات) للنيل من الجندية وما فيها من مشقة . ولا يخفي أن المنافسة بين الجيش والإدارة المدنية كانت شرسة ، كل يسعي لاجتذاب أنبغ العناصر الشبابية إليه " ص ٧٩ ، ٨٠ - الطفل المصري القديم .

أما الخيال فى قصصهم .. " وتروي حكايات العجائب قصة عن الملك سنفرو يقوم فيها برحلة ترفيهية علي سفينة فوق إحدي البحيرات .. وكان يسير

السفينة عشرون فتاة جميلة فى أردية شبكية تكشف عما تحتـها . (جدفن صعـودا وهبوطا ، وقلب صاحب الجلالة ينبض بالفرح عند مشاهدتهن وهن يجدفن . ولما عبثت إحداهن بخصلتها الجانبية وهي تضرب الماء بالمجداف ، سقطت علاقتـها الفيروزية فى الماء) ، فتوقفت البحارت الجميلات عن التجديـف . وعبثـا حـاول الملـك أن يعوضـها عن حليتـها إذ أصـرت الفتـاة علـي اسـترداد حليتـها عينـها . فاستدعي الملك حكيما من حكمائـه (فوضـع نصـف المـاء علـي نصفـه الآخـر ، فعثر علي العلاقة راقدة فوق شقفة) " ص ٤٢ - الطفل المصري القديم .

يشي الخيال فى هذه القصة بالشئ الكثير ، فإصرار الفتاة علي طلبها ، جعل الحكيم يضع نصف الماء فوق نصفه الآخر ، ليحقق طلبها ، أي إذا أصر صاحب الحق علي استرداد حقه فلابد أن يناله .. ويفصح النص عـن احـترام الملـك للفتـاة وعدم زجرها لرفضها تعويضها عن حليتها . وضمنا ندرك مـدي احترام المـرأة عموما ، ممثلة فى هذه الفتاة ، ومدي الديمقراطية فى التعامل .. التى ربمـا كـانت فى النص فقط وليست فى الحياة العامة ، وحتى لو كانت كذلـك ، فـهو دعـوة لأن تكون حقيقة فى الواقع ..

إن هذه القصة من الدولة الوسطي ، ومـا ذكرنـاه مـن المختـارات مـن الدولـة الحديثة ، تخبران عن حرية القـول ، فالمختـارات تـدرس فـي المـدارس العامـة . وفي حرية تدعو للحد مـن الجنديـة ، فـي وقـت التوجـه العـام للدولـة نحـو الغـزو الخارجي ..

الأمر الذي يقطع أن ما ساعد علي اتساع الخيال .. هو الحرية التى تمتع بـها الناس .. فلا حظر علي قول حتي لو كان ضد توجه الدولة العام .. ولاحظر علـي طلب ، حتي لو كان ضد رغبة الملك .. وهـذا الملمـح (الديمقراطيـة) ، أغفلتـه ندوة " الأهـرام " المشـار إليـها ، واكتفت بـالتحذير مـن فقـر الخيـال ، وبـالذات الخيال العلمي .. وأسقطت من حسـابها .. أنـه لا يمكـن إطـلاق الخيـال إلـي آفـاق رحيبه ، دون إلغاء أي حظر علي التفكير في أي شئ ، وألا تكـون هنـاك منـاطق محظورة علي الفكر والأدب والفن ..

ولعل هـذا مـا جعـل الحيـاة تتقدم فـي مصـر القديمـة ، فـي الهندسـة والطـب والفلك، والفن والقصة والتشريع ، وأن تظل مصـر دولة مستقلة لمـدة ثلاثـة آلاف عام متصلة وهو ما لم يتيسر لأي دولة أخري منذ فجدر التاريخ .

فالخيال دون محظورات هو الذي يؤدي إلي تقدم الشعوب. فـإذا كـان الوعـي الجمالي يستثير فى الإنسان كل ملكاته الحسية والإدراكيـة والحركيـة ، وإذا كـان تغيير الواقع وتطويـره ، يتم بـالعلوم الماديـة والتجريديـة ، كالكيميـاء والرياضـة والطبيعة ، والعلوم الإنسانية كعلوم الاجتماع ، والنفس والتاريخ ، فإن الخيال هو

المسؤل عن جعل هذه العلوم تحدث تغييرها المنشود . والخيال هو القادر علي إثارة الدهشة ، ومن الدهشة تنبع الأسئلة ، والمسئول عن إرتقاء الخيال ، وتوسيع آفاقه ، هو الوعي الجمالي.

وهنا تبرز أهمية القصة .. وبديهي أننا نتكلم عن القصة الفنية الجيدة ، وليست قصة الوعظ والإرشاد والمعلومات والنقد الأخلاقى .. وافعل ولا تفعل .. فالأطفال كما تقول جون ايكن " لا ينتقدون ولا يستمتعون بالنقد ويقرأون من أجل العقدة (الحبكة) " ص ٢٨ - كيف تكتب للأطفال .

والقصة الجيدة هي تصوير وتشخيص للموقف والحدث والشخصية ، والتشخيص يعني إقامة علاقة مجازية مع شئ ، ويبدو أن مثل هذه العلاقة تفتح آفاقا لقيم جديدة في وعي الطفل بشكل عام تتعدي حدود الترقي المعرفي ، والقدرة الفنية ، وهي القدرة علي التفكير بالصور لفهم العالم من حوله .

فالشكل التصوري المجازي للوعي ، الذي يقال أنه أقدم من الشكل المنطقي ، يقيم علاقة حوارية مع أشياء وظواهر الحياة والكون ، فالجماد يتحدث معي ، وله انفعالاتي ، ويعاني مصيري " فى ضوء ذلك فإن (التشخيص) أي إضفاء الصفات الإنسانية علي (الآخر) سواء كان نباتا أم حيوانا أم طيرا أم جمادا يدعم الوعي الجمالي لدي الطفل ، لأنه من خلال هذا التشخيص يتحاور الطفل مع أشياء العالم ، السماء والنجوم ، والقمر والشمس والبحر والجبل ، والسهل والنهر ، والبط والأوز ، والأرنب والفرخ ، والفأر والقطة ، والأسد والنمر ، وهكذا .. ومع الحوار تتحول أشياء الطبيعة إلي كائنات يحبها الطفل ويحب أن يعرف عنها كل شئ " د. وفاء إبراهيم ص ٤١ - الوعي الجمالي عند الطفل .

ويلاحظ أن أشياء العالم التى ذكرت الدكتورة وفاء بعضها ، يشع فيها الجمال. أشكالها المريحة للنفس وتناغمها ، وتوازنها ، وأصواتها ..وكلام الدكتورة يوضح أهمية القصص التى تأنسن الأشياء ، وتستنطق الحيوان ، وتفتح آفاقا لا حدود لها فى وعي الطفل ، ليس الجمالي فحسب ، بل والمعرفى أيضا ، وتوسيع خياله ، والأهم من ذلك أنها تفتح الطريق أمامه ليبدع ويضيف ، ليس فى مجالي الأدب والفن فقط ، ولكن في أي مجال سوف يعمل به مستقبلا .. فالمدرس ذو الوعي الجمالي لن يقف عند حدود العملية التعليمية التلقينية ، ولكن سيتعدي ذلك إلي الاهتمام بإنسانية التلميذ ، والإجابة علي ما يعن له من أسئلة . والطبيب لن يقف عند حدود المعالجة الطبية كما درسها ، لكن سيتعدي ذلك للاهتمام بشخص من يعالجه ، وخصوصيته الفردية ، وكذا العامل فى مصنعه سوف يبتكر الحل لزيادة ما ينتج من أقصر الطرق وأقلها تكلفة ، مع تجويدها .. فمن يتحلي بالوعي الجمالي ، لن يتخلي عنه وهو يعمل ..

والعمل الخلاق ، يجعل الإنسان يرضي عن نفسه ، وهذا الرضا يحفز الجسم علي إفراز مادة ، تدفع الحيوية والنشاط فى كيانه ، ويقاوم التعب والمرض . وإذا ما حاز الإنسان إعجاب الآخرين ، عن عمله ، وأحس أنه أنجز شيئا غير مسبوق، فإن إفراز الجسم يتضاعف ، واستمراره ، يطيل حياة الإنسان .

ولن أفيض فى ما تحدثه القصة من أثر علي الطفل ، فقد أشبع الدرس الأدبي [illegible] من إثراء الخبرة عن الطبيعة والعالم الخارجي إلي تعزيز الاتجاهات [illegible] نحو القيم الإنسانية، وتنمية الانتماء ، ويري علماء النفس أنها -القصة- من ألوان اللعب الإيهامي ، وتشبه الحلم بالنسبة للأطفال الصغار ، ويري اللغويون أنها تزيد حصيلة الأطفال اللغوية وتحثهم علي القراءة والبحث . وأود أن أقول .. أن القصة ليست ما ذكره الدرس الأدبي فقط مع فيضه ، ولكنها تتسع لتصبح بلا شطئان ..

إن الإطفال فى قصص أندرسون يجدون فيها قانون وجودهم ، ويتعرفون منها علي الدور العظيم الذي يجب أن يضطلعوا به فى هذه الحياة . فقد أحسوا من خلالها بالأسي وشعروا بالشر يختلط بما حولهم وبما فى داخل نفوسهم ، وقصصه تحفل بالإيمان بمستقبل مشرق .

وإذا ما استعرضنا قصص رائدة مثل استريد ليندجرين نجدها تزخر بعوالم مفارقة لما فى الحياة المعتادة والمتوقعة ، وطرحت أسئلة كثيرة عن العدالة علي ألسنة الأطفال .

وكانت ليندجرين تحلم بعالم يخلو من الأحقاد والصراعات ، وهي التى قالت: يجب أن يعرف الأطفال أن الحياة تعج بالحزن والشر ، وأنها - الحياة - ليست حكايات سعيدة فقط ، وعندما ينشأ الأطفال وهم يدركون رعب الموت ، وندم الحرمان ، سيكون باستطاعتهم الوصول إلي الضفة الأخري أقوياء .

وعلي كتاب الأطفال أن يتذكروا ما قالته جون ايكن : " للأطفال احتياجات ضخمة .. وقد يكون فى تعليمهم ومحيطهم وتنشئتهم فجوات تؤدي إلي كوارث .. ولا يعيش جميع الأطفال فى عوائل سعيدة أو بيوت منظمة جيدا . وأي طفل مهما كان موفور الحظ قد يكون بحاجة أن تساعد القراءة علي ملئها . فهل يشعر الكتاب بأية مسئولية أخلاقية تجاه ذلك .. ؟ وهل بوسعهم عمل شئ لملء هذه الفجوات " ص ٤٣ - كيف تكتب للأطفال.

وعلينا أن نعي أن كل جيل يصل إلي هذا العالم يعمل علي خلقه من جديد مرة أخري .

ما أحوجنا فى عالم أحادي الهوية ، إلي المزيد من كتاب الأطفال ، لغرس

مبادئ حول العدالة فى توزيع الثروة ، ونبذ العنصرية البغيضة ، التى تشد من أزرها ، عولمة الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل وأوربا الغربية واليابان.. وأن يدعوا إلي نبذ الخرافة .. وإلي التفكير العلمي .. وأن يدركوا وهم يفعلون ذلك أن ميدان العلم هو معرفة (كيف) تعمل الأشياء ، ولكنه غير قادر علي معرفة (لماذا) هي كذلك .. وأن العلم لا تعنيه القيمة ، لما هو خير وما هو شر ، لكن الأدب يعنيه ذلك . وأنه رغم حداثة قصة الأطفال ، التى بدأت فى أواخر القرن السابع عشر ، كصدي غير مباشر لألف ليلة وليلة ، علي يد الشاعر الفرنسي تشارلزبيرو فى قصصه " حكايات أمي الأوزة " التى شملت حكايتي الجمال النائم وسندريلا .. إلا أن القصة قديمة قدم الإنسان ..

سردت الأم ما يسلي طفلها ويلهيه عن جوعه ، حتي يعود أبوه من الصيد .. وتطول غيبة الأب .. ويلح الطفل فى السؤال ، فلم يعد السرد البسيط مما فعله أبوه فى رحلة صيد سابقة كافيا ، وأصبح مملا تكراره .. فبالغت الأم فى حكايتها، وأسبغت علي رجلها ألوانا من البطولة والشجاعة ، وهو يقتل الوحش .. ووجد الصغير لذة فى الاستماع .. وكلما اتسع خيال الأم وابتعد عن التجربة المباشرة ، كلما زاد انجذاب الطفل ..

إن الذي سحر الطفل ، وألهاه عن جوعه ، ليست قصة قتل الوحش بحذافيرها، ولكن ما استشعره من متعة جمالية عندما بالغت الأم .. وأصبحت القصة تطلب ، لا لتأدية منفعة (إلهاؤه عن جوعه) ولكن تطلب للاستمتاع بها سواء كان الأب موجودا أم لا .. وسواء كان الطفل جائعا أم لا .

وتراكمت الخبرة ، والتذكر ، وأصبح الإنسان يميز رد الفعل ، وقد امتزجت به العواطف والأحاسيس المختلطة بالعمل والأفكار والأسباب ، وبين الفعل ورد الفعل ظهرت " القصة " متأثرة بالدين والأساطير كما فى الدولة الفرعونية القديمة .. وسرعان ما تخلصت منها وظهرت القصة الدنيوية فى الدولة الوسطي .. لها عقدة وحبكة ، وبها حوار حي ، وبها دقة فى الوصف وجمال العبارة ، والتعبير عن المشاعر .. وفي الدولة الحديثة وصفت القصة المعارك ، وكانت معركة قادش لرمسيس الثاني ، وما أظهره وقواده من شجاعة ، مصدرا لملحمة عرفها العالم باسم " قصيدة بنتاور " .. وعرفت القصة المركبة أيضا ، سمر خوفو مع أبنائه ، وكل منهم يحكي قصة لتسليته ، وما أشبه طرائق القص -أحيانا- فى ألف ليلة وليلة ، بها .

وإذا كان علي كاتب الأطفال ، أن يكتب لهم كما يكتب الكاتب للكبار ، بل وأفضل ، كما يقول جوركي ، فإن عليه أي يتواضع ويجتهد وهو يحدث الطفل ولنستمع لما يقوله عبد التواب يوسف فى كتابه " فصول حول الطفل والقراءة "

ص ١٠١ :

" ونحن للأسف لا نعرف الكلمة السحرية " افتح يا سمسم " التى تجعل الطفل يفتح كنوز الكتب لسبب بسيط ، هو أنه لا وجود فى واقع القراءة لمثل هذه العبارة ، إذ أننا فى الحقيقة - كما تقول ليليان سميث فى كتابها عن سنوات الطفولة : (لا نعرف لماذا يقرأ الأطفال بعد أن يكتشفوا الكتاب ؟ هل للمتعة ؟ هل لأنهم يكتسبون منه تجارب لا تكتسب بطريقة أخري ؟ هل يدفعهم لذلك حب الاستطلاع ؟ لا ندري علي وجه التحديد ، لكننا علي يقين من أنه ما من قوة يمكنها أن تفرض علي الطفل أن يقرأ ما لا يرغب فيه ، وإذا فعل فسيكون ذلك بدون جدوي ، والأطفال قد لا يعرفون لماذا يحبون كتابا ويرفضون الأخر ، لأنهم لا يحللون ، ولا يبنون النتائج علي المقدمات ، لكنهم يبنون أحكامهم وفق ذوقهم الخاص ، وبطريقتهم الذاتية ، وربما تكون " المتعة " هي مقياسهم الأساسي. ونحن نحاول أن نقدم لهم بالكلمات تفسيرا وشرحا للعالم الذي يعيشون فيه ، وللحياة التى يحبونها ، كأننا نعرف ذلك العالم ونعرف هذه الحياة ، وأيضا كأننا نفهمهم هم أنفسهم ، ويجب أن نعترف أن ذلك ليس يقينا ، لأنه يجدر أن نتساءل طويلا عن مشاعرهم وأحاسيسهم ،روح الطفولة بداخلهم ، آفاقهم ، ما يحبون وما يكرهون " .

المراجع

- كيف تكتب للأطفال - جون ايكن -ترجمة كاظم سعد الدين - بغداد - دار ثقافة الأطفال - ١٩٨٨ م .
- الوعي الجمالي عند الطفل - د. وفاء إبراهيم - هيئة الكتاب - مهرجان القراءة للجميع - ١٩٩٧م .
- فن الكتابة للأطفال - أحمد نجيب - دار اقرأ - بيروت - لبنان - ١٩٨٣م .
- الطفل والموروث الشعبي - عبد التواب يوسف - دار ثقافة الأطفال - مطبعة سومر - ١٩٨٩م .
- فصول حول الطفل والقراءة - عبد التواب يوسف - دار ايمان - عمان - الأردن - ١٩٩٢ .
- ندوة عن الخيال - جريدة " الأهرام " القاهرة - ٢٠٠٢/٢/٢٢ .
- الطفل المصري القديم - روزا ليندم وجاك .ج.يانسن - ترجمة : د. أحمد زهير أمين - الألف كتاب الثاني رقم ٢٣٦ - هيئة الكتاب ١٩٩٧ م .

العم عبد التواب يوسف

هو مؤسسة للكتابة للأطفال . جاء فى أول ببليوجرافيا للإنتاج الفكرى الصادر عن الأطفال فى مصر خلال خمسين عاما ، ابتداء من عام ١٩٥٢ ، أنه أكثر المؤلفين إنتاجا فى مجال الكتابة للطفل .

وهو أحد الرواد فى هذا المجال ، علي المستوى المصرى ، والعربى ، وله إسهامات بارزة على الصعيد العالمى ، حيث تُرجمت قصصه إلى عدة لغات ، وقُدمت بعضها إلي الأطفال فى كافة البلاد ضمن مختارات من أفضل القصص فى العالم .

وقد حاز علي جائزة الدولة فى ثقافة الطفل عام ١٩٨١ ، وجائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٩١ ، وجائزة أفضل كاتب للأطفال فى مصر عام ١٩٩٧ .

كتب " حياة محمد " فى عشرين قصة ، وأعاد كتابة وصياغة عشر قصص شعبية وأصدرها بعنوان " العقل زينة " وأصدر كتاب " حكايات أفريقية " نشر فيه سبع عشرة قصة شعبية أفريقية ، وأصدر عشرات من القصص الشعبية فى كتب مختلفة ، ونشر عشر قصص شعبية فى كتابه " البذور " بعضها مستقى من الرواة . وترجم عشرات القصص والروايات العالمية ، خاصة الحاصلة علي جائزة " أندرسن " ، والجوائز الأخرى الهامة، كما ترجم مسرحية " الحذاء الأحمر " لهانس كريستيان أندرسن و " وداعا مستر تشبسى " لجيمس فيلتون ، يشفع ذلك بتعريف بتاريخ الكاتب، وأهمية القصة فى الأدب .وهو مغرم بإصدار السلاسلال المختلفة .

- سلسلة من قصص القرآن عن الطير والحيوان (ثلاثون عنوانا) .
- سلسلة حكايات عائلية (عشرة عناوين)
- سلسلة حكايات مدرسية ضاحكة

• سلسلة حكايات مصرى فى أمريكا ، وتحفل بتاريخنا الفرعوني والمعاصر بشكل غير مباشر ، وترد علي الدعاوي الصهيونية ، بخصوص حق العرب فى فلسطين ، وعلى الافتراءات أننا معادون للديانة اليهودية .

ويكتب عن قدسية سيناء فى حكاية " حفنة من رمال سيناء " ، وعن حضارتنا التى أصبحت تراثا إنسانيا (نحن مدينون لكم ولحضارتكم بل ولطريقتكم فى الطهي) يعترف بها أمريكي فى حكاية " متحف لاينسى " .

• سلسلة البيئة ، ويتحدث فيها عن الشجرة وأهميتها ، وعن أهمية الرياضة ، ويربط بين كرة الرياضة والكرة الأرضية وما يحدث من مآس فى بعض البلدان كأفغانستان ، كتاب " الكرة رياضة وحياة " .

• سلسلة مصر الحضارة ، عن أهمية اختراع الكتابة فى حياة الشعوب ، وعما فى تراثنا الشعبى كالقلل القناوى ، وربط ذلك بالظواهر الطبيعية .. كالحرارة والبخر .

وهو يكتب عن المشروعات القومية الكبرى ، كمشروع " تشوكى "، وأهميته فى استصلاح أراض زراعية .

ويكتب عن حرب ١٩٧٣ " أشبال ٦ أكتوبر " عن المنتصرين العائدين يحملون زجاجات تمتلئ برمال سيناء .

ويكتب عن الأصدقاء الثلاثة لإنساننا المعاصر .. القاموس والموسوعة والأطلس.

ويكتب كثيرا من الدراسات ، نذكر منها :

" الطفل والموروث الشعبى " و " حكاية الحيوان فى ألف ليلة وليلة " و " كامل كيلانى وألف ليلة ولية " و " ألف ليلة وحكايات الطفولة " و " الطفل والموت (سنوهويت) " و " قراءة جديدة لألف ليلة " و " الصياد والعفريت – دراسة مقارنة بين ألف ليلة والأخوان جريم " و " عن أدب الطفل " و " فصول حول الطفل والقراءة " .

وفيما يلي قراءة لبعض الأعمال من نتاجه الإبداعي .

حكايات عائلية

تحت هذا العنوان ، صدر للأستاذ عبد التواب يوسف عشر حكايات . فى حكاية " أسرة مترابطة " فقد رب العائلة ثروته ، وأعطته الأم حُليها ، التى تعني عندها قيمة معنوية أكثر منها قيمة مادية .

شبكة الزواج ، وقرط كان أول هدية لها ، وعقد أهداه لها زوجها عندما حقق ربحا . لكنها تضحي بكل ذلك ، لتقف إلي جوار زوجها ، وشعارها أن الإنسان يصنع الثروة ، وأن الثروة لا تصنع الإنسان . وعلمت بنتها ما فعلته أمها ، فأعطتها حُليها ، وهو يعني عندها قيمة معنوية أيضا ، هذا هدية فى عيد ميلادها ، وتلك سلسلة فى وسطها كلمة " الله " . ويلحظ شقيقها اختفاء حُلي أخته التى كانت

تضعها حول رقبتها ورسغها وأصابعها، فيقرر تعويضها وقد أحس أن شيئا قد حدث، استوجب ذلك . فيعطي أمه ما ادخره في حصالته من نقود لتشتري هدية لأخته .

وهكذا ، نرى الأسرة مترابطة ، كما أخبر عنوانها ، ساندت بعضها بعضا، عندما ألمت بربها أزمة مالية . تمت هذه المساندة بنبل مجرد ، دون أي تردد من جانب الأم أمام هدية عزيزة ، تعتز بذكرى مناسبتها ولا تريد فقدها . أو تباطؤ من البنت أمام خاتم جميل ودت لو احتفظت به ، أو توقف من الولد لاستبقاء مبلغ لشراء شئ رغبته نفسه ، وانتصر حبه لأخته ، وضحى برغبته .

لو حدث هذا لزاد من نبل المساندة ، وعمقت في وجداننا أكثر .

ولقد بدأت الحكاية ، بمقدمة عن صورة " عنقود عنب " تحتفظ به الأسرة، وتحكي قصته لكل من يزورها . هذا العنقود اشتراه الأب لزوجته المريضة ، وتنازلت عنه لبنتها مكافأة على عملها في المنزل أثناء مرضها . وتنازلت البنت عنه لأخيها ، لتسوقه للأسرة في تلك الفترة ، وأهداه الولد لأبيه .

والفكرة مستوحاة من قصة تراثية عن الإثرة ، ولا بأس في ذلك .

وتنتهي حكايتنا ، بأن صورة العنقود المعلقة ليست مجرد زينة ، ولكنها " فكرة تؤمن بها العائلة " ص ١٦ وبتصدير الحكاية بهذه المقدمة وبالإشارة إليها في النهاية ، باتت الحكاية كأنها أتت لإثبات صحة ما جاء في المقدمة.

ولو حذفت هذه المقدمة ، ما تأثرت حكايتنا ، ولانصرف ذهننا كلية ، إلي دلالة القصة عن الإثرة ، التي تشي بها أفعال أفرادها .

وفي حكاية " أخت وأخ " ، لا نجد هذه المثالية في السلوك ، التي أخذناها علي شخصيات الحكاية السابقة . تحكي أخت عن أخيها في مذكراتها ، ويحكي الأخ الأصغر عن أخته في مذكراته . في أسلوب ساخر ، فكه ، يحبه الأطفال .تتكلم البنت عن أخيها :

"- اصحى من فضلك يا هشام بك

- قم من نومك يا باشا " ص ٢ ، ٣ .

وهي تراه دائما ، مزعجا ، لا يهمه إلا أين (الفطور) و (لا أجد حذائي) . وتسخر من إعجابه بنفسه .

" - اليوم حصلت علي أعلي درجة في الفصل ! رائع . أليس كذلك " ص ٥.

ويضايق البنت أن الأبوين ، لا يعدان ما يفعله هشام قلة أدب تستوجب العقاب ، بل يكادان يستمتعان به ، وتفسر ذلك أن الأبوين يحبانه أكثر منها.

والولد في مذكراته لا يعجبه أنهما يسميانها عظيمة ، لأنها أكبر منه بسنتين ، ولماذا يعدانها أذكي وأشطر وأعقل مخلوق في الوجود . وهي تظن نفسها موسيقية كبيرة لأنها رددت بعض الأغاني الجديدة كالببغاء . وهي تعتبر نفسها أحسن مهندس ميكانيكي في العالم، لأنها تستطيع استعمال (فتاحة العلب) ، وهي تحسب نفسها

عبقرية ، لأنها تستطيع تذكر أرقام التليفونات ، وتستطيع إدارة قرص الأرقام ، بينما هو لا يعرف ، ولا يطلب أحدا .

وإذا لمس واحدة من لعبها ، ترتفع صرخاتها :

" ماما .. ابعدي هذا المتوحش عنا ! خذي هذا المزعج عندك !! " ص١٤ .

وإذا اعترض علي سلوكها ، لم يجد من والديه غير اللوم :

" عيب أختك الكبيرة " ص ١٦ .

وينتهي الولد إلي أن أبويه يحبانها أكثر منه .

التشكيل فى هذه الحكاية ، اعتمد المفارقة بين الروايتين ، ونجح فى تقديـــم مــا يفكران فيه من وجهتي نظر مختلفتين ، بحكم السن والخبرة ، وبالتالي اختلف موقـــع كل من منهما من الأبوين . ولم يكن غريبا أن يعتقد كل منهما أن أبويه يحبان الآخـر أكثر منه .

وقدمت هذه التقنية الفنية العالية فى التشكيل ، شخصيتي طفلين ، دون تدخل مــن الراوي ، وأفصحت بجودة وعفوية ، عما يدور فى عقليهما ، وأنهما يســـعيان ، ولا شك ، لنيل حب الأبوين .

وفى حكاية " أم وبنت " ، نرى فتاة وشوقها الدائم إلى حضن أمـــها . والحضــن يعني الحنان والدفء والتواصل والحميمية ، وكانت الفتاة تسعي ، وتتفوق لكي تنعـم باحتضان أمها لها . فكرة جديدة ، ولم يتم تناولها من قبل، وربما لهذا الســبب بــالغ الراوي فى أهمية الحضن " حضن أمي ، إنه جنة حقيقية ، أرى فيها أنهارا من لبــن وعسل ، وأسمع موسيقى عذبة ، وأنعم بكل ما هو جميل فى الحياة " ص ٤ .

ولم تهتم الحكاية ، بأية عوامل أخرى ، تساعدها علي النجاح ، وتجعلها تتفـــوق لتنال الاحتضان . " إنني – سنة بعد سنة – أحقق هذا التقدم والنجاح، لسبب بسيط هو أنني أخشى أن أفقد حضن أمي وضمها لى إلي صدرها ، مع همسة : " مــبروك " ، لذلك أعمل وأستذكر ، ولا أضن علي دروسى بأي جهد أو تعب ، وإلا ضنت علـــيَّ بهذه المكافأة السنية الكبيرة ، العظيمة ، الرائعة .. الدافئة شتاءً ، الرطبـــة صيفـــا ، المعطرة طوال العام ، كحديقة فواحة بكل ألوان الــورود (الــورد) والزهــور .. واصبحت أخشى ألا أكون الأولي ، فلا أحظي بهذه الجائزة التى لا مثيل لـــها فـــى الدنيا" ص ١٠ .

كما لم تحفل الحكاية بأي إخفاق ، لنرى تأثير حرمان الفتاة من هذا الحضن علـي نفسها وعلي سلوكها .

وفى حكاية " أب جديد " بنت فى الثامنة من عمرها ، ومنذ تنبهت ، لم تجد لـــها أبا . لذلك كانت لصيقة أمها . وحين تشرع الأم فى الزواج ، تحـــزن البنــت خشية أن يستأثر زوج الأم بها ، وتفقد اهتمام أمها بها وتصارع البنت ضد نفسها :

" لماذا تتزوج أمي ؟ لماذا ؟

ويرد صوت آخر بداخلي ، هادئ :

– ولماذا لا تتزوج ؟!

ويعلو صوتي :

– إنني راضية سعيدة معها .

– وماذا عنها هي ؟!

– هي تبدو كذلك أيضا

– لكنها فى حاجة إلي بديل لزوجها الذى فقدته " ص ٥ .

ولا تصل البنت إلي قناعة ، وينتابها السرحان ، وتفقد التركيز فـــلا تستـــوعب دروسها .

وتحاول أمها إقناعها :

" الحياة يا بنيتي صعبة فى هذا الزمان ، ونحتاج معا إلي مـــن يقـــف بجانبنـــا ، ويعاوننا بقوته ، وشهامته ، ورجولته ، وقدرته ، وأيضا ببعض المـــال .. " ص ١٢، ١٣ .

ومع أن الفتاة لا تستوعب الأمر ، إلا أنها تراجع نفسها ، منذ ليلة عرس أمـــها ، فقد تخيلت حفل العرس " صاخبا ، به موسيقي مزعجة وزحاما شديدا، وفرحا مثـــل ذلك الذي أراه علي شاشة التليفزيون فى الأفلام .. يبدو أن بعض تصوراتي ليســـت سليمة ، ولا هي صحيحة " ص ١٥ .

جاء الحفل هادئا بسيطا ، والجميع يتبادلون التهاني والأماني الطيبة ، وتنســـاب الموسيقي ناعمة ، وامتلأ المكان بالزهور الفواحة .

وبعد الزواج ، لم تشعر الفتاة أن حب أمها ، أو اهتمامها بها قد نقص ، ولمســت تعاطف زوجها معها . خف توترها وعادت سيرتها الأولي . أخذت تتابع دروســـها ، وقد تناغمت مع الوضع الجديد . وزادت سعادتها ، عندما أنجبت الأم أخا لها ، قضى علي شعورها بالوحدة .. " وصار هو محور عناية الجميع ، ولم أضق بذلك ، ولـــم أشعر قط بالغيرة ، لأنه (شئ) لطيف، يثير الشفقة ، ويستحق منا كل رعايـــة " ص ١٩ .

مع أننا نعرف مدي غيرة الطفل أو الطفلة ، حين يأتي مولود جديد . وباســـتثناء هذا ، فالفتاة مشخصة بشكل جيد ، تصارع ضد نفسها لتتقبـــل فكـــرة زواج أمـــها ، وعرفنا تصوراتها الخاطئة ، والتى لم ترجع عنها إلا بعد أن أقنعها الواقـــع بذلـــك ، حفل الزواج ، ومعاملة الأم وزوجها لها بعد الزواج.

فى حكاية " زوجة أبي " ، إحسان والداها منفصلان ، ويدعوها أبوهـــا لقضـــاء شهر من إجازة الصيف معه وزوجته . تتردد إحسان ، خوفا أن يحدث لها ما حـــدث لسندريلا من زوجة أبيها . تجعلها تكنس وتمسح وتترك أخويها نائمين . وزاد خـــوف إحسان ، ما يتناقله الناس عن زوجة الأب ، وسوء معاملتها لأبناء زوجها .

لكن رغبتها فى قضاء بعض الوقت مع أبيها ، تنتصر فى النهاية . وتذهب إليه ، وفى ذهنها أن تكون منتبهة لأي فعل يصدر عن زوجته ، ودربت نفسها علي العبوس فى وجهها .

وعلي عكس ما توقعت إحسان ، قوبلت مقابلة حسنة ، وعوملت طوال إقامتها بود . وعندما علمت زوجة أبيها أن عيد ميلادها قد حان ، أعدت لها حفلا ، دعت إليه أبناء جيرانها .

وأحست إحسان بالامتنان :

" اتجهت إلي زوجة أبيها ، وهمست بصوت هادئ عميق :

– ألف شكر " ص ١٩ .

إن الكاتب يعارض الشائع ، أو ما يتناقله الناس عن زوجة الأب فليس كل ما يقال ، ينطبق علي كل الناس ، وزوجة الأب ، إنسانة مثل كل البشر ، تخطئ وتصيب ، وقد تكون سيئة ، وقد تكون طيبة ، كما فى حكايتنا .

وقد نقض الكاتب أيضا بعض ما ورد فى الحكايات القديمة ، مثل " سندريلا " و " الجميلة النائمة " وقد جاوزه العصر .

" إن زوجة الأب لم تدع (إحسان) تمسح البلاط ، أو ترتدى الملابس الممزقة مثلما حدث مع (سندريلا) ، أو فى حكاية (الجميلة النائمة) ، لأن حياتنا الحاضرة فرضت علينا لونا من التحضر ، جعل فى مقدور الناس أن يتعاملوا بالحسني " ص ٢٠ .

وليت الراوي ما صرح بهذا ، فقد أخبرتنا به الحكاية ، حين كانت البنت مترددة فى قبول الدعوة ، وما لاقته بعد ذلك من معاملة حسنة .

وهذه الحكاية تنويعة أخرى ، علي نفس المعني الذى تردد فى حكاية "أب جديد" وما يقال عن زوج الأم ، وخوف البنت ألا تعامل معاملة حسنة .

وجنحت زوجة الأب إلي المثالية ، فهي طيبة جدا ، مثل زوج الأم فى القصة التى أشرنا إليها . ماذا لو حدث خطأ غير مقصود ، نتيجة ، لسوء فهم ، أو لحدوث لبس معين . فتخال البنت فى الحكايتين أن مخاوفها سوف تتحقق ، ثم يتضح لها العكس ، وأن الخطأ من طبيعة البشر . كان هذا سيعمق من الشخصيتين أكثر ، زوجة الأب ، وزوج الأم .

ولقد نجح الكاتب ، فى تقديم شخصية البنت ، فى الحكايتين بفنية مثالية، تتصور أشياءً لا وجود لها فى الواقع ، وتشك ، وتتردد ، ولا يفيقها من عقم تصوراتها إلا الواقع نفسه ، عندما تجد معاملة حسنة .لكن الكاتب ، إلي جوار ذلك ، قدم شخصيتين مثاليتين أخلاقيا (زوجة الأب وزوج الأم)، لا تخطئان وتسلكان بطيبة ، وليست لهما أي هفوات . فلماذا قدم إلي جوار الشخصية المثالية فنيا ، شخصيتين مثاليتين أخلاقيا ؟! هل أراد أن يقدم نموذجا يحتذي به الأطفال .. ربما .. لكن ، لن يحتذى

الأطفال بنموذج غير مقنع فنيا، لن يقنع الأطفال بشخصية مجردة من إنسانيتها .. لن يخلو الأمر من سوء تقدير .. أو عدم ضبط انفعال .. أو خروج عن المألوف .

ووُفق الكاتب فى جعل البطل فى الحكايتين فتاة . فالبنت تتمتع بالرقة ، وقدرتها أكبر من الولد ، فى التعبير عن حرمانها من عطف الأب أو الأم ، حيث تقضى وقتا أكبر في البيت ، عكس الولد الذى يقضى أغلب وقته فى الشارع ، لذا يكون إحساسه بالحرمان من حنان الأبوين أقل ، وفرصة اهتمامه بأي هواجس عن زواج الأب أو الأم أضعف ، لانشغاله – أكثر – باللعب مع أقرانه .

فى نهاية حكاية " الصغير والمدرسة " يقول عبد التواب يوسف : عندما كنت فى جامعة أوهايو كان الأساتذة والطلاب يسمونني " دكتور سوس المصرى " على اسم الرائد الظريف لأدب الطفل الصغير فى أمريكا ، والذى كان يكتب لهم أعمالا غاية فى الظرف ، أحببت أن يتذوقها الطفل العربي ، كنموذج لإبداع الأقلام الحديثة فى مجال أدب الطفل .

ويقص علينا قصة غاية فى اللطف عن صبى ، تأخر عن موعد المدرسة، لكن خياله الخصب أوعز إليه أن يقول لمدرسته ، عن سبب تأخيره ، أنه كان يضع كتابا فوق رأسه ، وباضت عليه عصفورة بيضتين ، ولم يشأ أن يتحرك من مكانه ، حتى فقست البيضتان .

وبالطبع تغرق المدرسة فى الضحك ، وقد صفحت عنه ، ورأت فيه مؤلفا ذا خيال خصب .غير كاتبنا اسم البطل إلي هانى ، ليكون قريبا من وجداننا ، وباقي ما يحدث فى القصة ، لا نشعر تجاهه بغربة عن بيئتنا . وجميعا نعرف عن شقاوة الأولاد ، وتأخر بعضهم عن موعد المدرسة ، وانتحالهم الأعذار .لكننا لم نكن نعرف كيف استخدم أحدهم الخيال للإفلات من العقاب ، وماذا يعنيه الخيال والابتكار للخروج من الأزمات والمواقف الصعبة .

• • •

هذا وتقع كل حكاية فى عشرين صفحة من القطع الكبير ، نصف الصفحات شغلتها الرسوم الملونة ، لكنها ، مع تصميم الغلاف ، ينقصها جمال التشكيل الفني الذى لو تم ، لأضاف الكثير إلي الإحساس بالجمال ، الذى حفلت به أغلب الحكايات.

وقد صدرت هذه الحكايات فى طبعتها الأولي عام ١٩٩٥ ، بالقاهرة عن الدار المصرية اللبنانية .

<u>حكايات مدرسية ضاحكة</u>

سلسلة من الحكايات ، تقع الواحدة منها فى ١٦ صفحة من القطع الكبير، تشغل الرسوم نصف الصفحات تقريبا، وقد صدرت طبعتها الأولي عن الدار المصرية اللبنانية فى يونيو ١٩٩٧ .

وهي حكايات تتعلق بالمدرسة ، وتحفل فى مضمونها بالحياة العامة.

وتدور الحكايات حول خوف فتاتنا من العصا ، عندما تنام تحلم بها تضربـــــها ، وعن أصابع الطباشير ، وما يعنيه استهلاك المدرس لكمية كبيرة منه ، أنه مخلــص فى عمله . وعن سلة المهملات التى يستدرج فيها الكاتب قارئه بسهولة فائقة ، حتى يصل به إلي أن الكرة الأرضية ، تكاد تتحول إلي سلة مهملات ، بسبب مـــا يلقونـــه فيها من نفايات ذرية ، ولا يفوته التركيز علي الإنسان ، وماذا يعني أن يكون مـــهملاً . وعن الألوان وأهميتها فى المدرسة والحياة ، وعن المسطرة ، ويربطها بالســـلوك القويم ، وبالأسطورة والخيال .

" القلم المبرى من الطرفين "

واحدة من الحكايات التى أعجبتني جدا .

فتاة تحب القلم الرصاص فى الكتابة ، وتبريه من الطرفيـــن . تكتـــب بطـــرف، وترسم بالطرف الآخر . ولم يعجب هذا والدها .

" أبي قال : لك رأس وقدمان ، هل تحبين أن يكون لك رأسان " ص ٩ .

عندما تصورت نفسها كذلك ، ضحكت كثيرا ، لكنها استمرت فى برى القلم مـــن الطرفين . وتجاوبت معها زميلاتها فى المدرسة . ورأت المعلمة أن ذلك يتسبب فـــى قصف سن القلم بسرعة . لكنها استمرت فى بري الأقلام من الناحيتين ، وكذا أقـــلام الرسم .

وإزاء إصرار فتاتنا ، عاقبها والدها ، أن يكون شراء الأقلام من مصروفها .

وذات ليلة استيقظ والدها (المؤلف) وقد واتته فكرة أراد تسجيلها بسرعة ، قبـــل أن تضيع منه ، فخط علي ورقة ما أراده . وفى الصباح اكتشف أن الورقة بيضـــاء ، فقط خط فى عجلته فى الظلام ، بطرف القلم غير المبرى .

" أسف أبي وتألم مما حدث .. وفكر فى طريقة جديدة تجعل ذلك لا يتكرر .. بدأ أبي يبرى القلم من الناحيتين " ص ١٦ .

حبكة جميلة ، تقول دون زعيق ، ماذا يعنيه عدم تسفيه الرأي الآخر . وغني عن القول ، ما يعنيه هذا فى حياة الفتاة أو الفتي ، عندما يشب ، وقد ترسخ فى وجدانـــه احترام الرأي المخالف ، خاصة ونحن نعاني فى حياتنا المعاصرة : عدم احترام ، أو التعايش ، مع الرأي الآخر .

وجمال الحبكة ، نابع من الأفعال اليومية المدرسية والمنزلية البســـيطة ، التـــى تأخذنا بـــ " لطف " ويسر إلي تمثل ذلك المبدأ الكبير : احترام الرأي الآخر .

خيال المأته فى المكتبة

عن دار الشعب بالقاهرة ، صدرت عدة قصص للأستاذ عبد التواب يوسف ، مثل الوجبة الشهية " ، " اختيار صعب " ، " البقرة الزاجل " ،" خيال المأته فى المكتبة " ، وذلك عام ١٩٩٩ ، ونتحدث عن القصة الأخيرة ، التى كتبها بالإنجليزية ، وترجمتها بنته د. لبني يوسف إلي العربية وتقع فى إحدي عشرة صفحة ، ومثلها بالإنجليزيـــة ،

من القطع الكبير ، نصف الصفحات بها رسوم ملونة ، لا ترقى لمستوي الجمال في القصة .

مكتبة عامة للأطفال تقع في ميدان فسيح ، تتناثر فيه أحواض الزهور ، وتحوم فيه أسراب من الحمام . ولم يعد الحمام يستهويه أن يحط علي نوافذ الطابق الثاني من المكتبة ، فقط ، بل كثيرا ما طار إلي داخل غرفة المكتبة .

" وضاق أمين المكتبة بالحمام ، فهو أحيانا يصطدم برفوف الكتب أو المصابيح ، أو .. ، وحاول الأمين مع معاونيه طرد الحمام ، إلا أنه كان مصرا علي دخول المكتبة ، وبُذلت محاولات عديدة لمنعه من التحليق فوق رؤوس القراء ، ولم تنجح هذه المحاولات ، واضطرب العاملون بالمكتبة بسبب هذا الحمام ، إذ كان في كثير من الأحيان يترك فضلاته فيها ، وكان التخلص منها وتنظيف المكان عبئا ثقيلا ، وزادت المشكلة تعقيدا حين أرادت حمامة بناء عش لها فوق نتوء بارز لواحد من أعمدتها الضخمة" ص٦ .

وحاول العاملون في المكتبة التخلص من الحمام دون جدوي ، فأعلنوا عجزهم ونقلوا ذلك إلي الأطفال المترددين علي المكتبة . وفكر الأولاد والبنات كيف يمنعون الحمام من الدخول دون أن يغلقوا النوافذ وعددها عشر ، حتى لا يُحرموا من الهواء والضوء . واقترح أحد الرواد الذى قرأ كتابا عن " خيال المأته " الذي يضعونه في الحقول لطرد الطيور ،حماية للمحاصيل ، أن يضعوا " خيال مأتة " علي كل نافذة ، وقرر الأطفال أن يصنعوا " خيال مأته " بشكل فني جميل ، بدلا من تلك العصى في جانب من الحقل عليها جلباب بالٍ .

" وبعد يومين فقط ، وقفت خيالات المأته علي النوافذ قطعا فنية غاية في الجمال والأناقة ، بعضها معلق بسلك من أعلي النافذة ، وبعضها يستند علي قاعدتها ، وبعضها معلق علي سارية كأنه علم .. كان المنظر بهيجا وممتعا، وخرج الجميع من المكتبة ليقفوا في الميدان ، متطلعين إليها مبتسمين ضاحكين ، معجبين بها ، مقدرين لها ، وعندما لمحت أسراب الحمام خيالات المأتة تتحرك ثيابها مع الهواء خافت منها ، ولم تقترب من النوافذ " ص ١٠ .

وأعجب الناس في المدينة بما فعله الأطفال ، وتناقلوه فيما بينهم ، حتى وصل إلي رجال الأعلام .

وجاءت كاميرات التليفزيون لتصور المكتبة وقد وقفت عندها خيالات مأتة ملونة مزخرفة .

هذه قصة جميلة تتسلل إلي النفس في يسر ، وتعشش في الوجدان ، ونظرة علي ما أدي إلي الإحساس بالجمال .

إذا كان الأطفال مستفيدين من المكتبة ، فهم الأقدر علي حل أي مشكلة تعترضها . وجعل الكاتب الكبار يلجأون إليهم ، يبعث في نفوسهم الدهشة .

أفصح تشكيل القصة – دون مباشرة – عن ضرورة حماية المكتبة ، أي حماية المعرفة ، وزاد من جمال التشكيل ، أن الفن ، خيالات المآته الملونة ، ساهمت في ذلك . وهكذا نبع مضمون القصة من تشكيلها .

نظرا لأن مشكلة الحمام ، طارئة ، لم تتعرض لها مكتبة من قبل ، فقد جاء الحل مبتكرا ، فلم يلجأ الأطفال إلي خيال المآتة التقليدي ، ولكن طوروه ، ليناسب وضع مكتبة فى المدينة ، وجعلوه فى شكل فني ، زاد من قيمته ، أنه نابع من تراث الفلاح المصري العريق .

فقط ، لو أن المؤلف حذف العبارة الأخيرة من القصة " كان الأطفال سعداء ، هم يفكرون ويبدعون ، وهم قادرون علي حماية كتبهم ومكتبتهم. ماذا تضيفه هذه الجملة ، وقد عايشنا ما فعله الأولاد لحماية المكتبة .

وفقط، لو لم يكتب الناشر علي الصفحة الأولي من الكتاب " سلسلة ثقافية تربوية للطفل " . فالأطفال لا يقبلون علي قراءة ما يربيهم ، خاصة وهم يشبعون تربية في البيت والمدرسة ، ولكنهم يقبلون علي قراءة ما يمتعهم .

أم حنان

زاوج الكاتب ، فى روايته " أم حنان " بين التاريخ والواقع المعاش . أفسح للتاريخ الكلمة فى أول كل باب من أبواب الرواية السبعة ، يذكر فيها حقائق التاريخ مجرده تحت عنوان " التاريخ يقول " ثم يتبع ذلك بسرد الواقع المعاش تحت عنوان " حكايتنا تقول " .

تبدأ الرواية من عام ١٩٥١ ، حين كانت المقاومة الشعبية المصرية ، فى مدن قناة السويس ، مشتعلة ضد الوجود الإنجليزي فيها .

فى تلك الأثناء يصاب التلميذ حسن ، الذى بلغ العاشرة من عمره ، ابن الصياد دياب ، برصاصة فى صدره ، من جنود الاحتلال ، ويسقط قتيلا . ولا يهدأ بال أمه ، حتي تأخذ بثأره . تنتهز فرصة مرور عربة محملة بالجنود الإنجليز ، من شارعهم ، وتلقى عليهم موقدا مشتعلا . وتسببت الذخيرة فى العربة فى حدوث انفجار هائل . يقبض الإنجليز علي الأم، ولم تعد بعد ذلك .

أدرك زوجها دياب ، أنه لم يعد له مكان فى الإسماعيلية ، فهو لا يستطيع رؤية الإنجليز قتلة ابنه وزوجته . يأخذ بنته سميحة ويرحل إلي قريته " العمدة " فى ريف الإسماعيلية ، حيث الأهل والأرض . يترك مهنته ويعمل بالزراعة .

تقع حرب ١٩٦٧ ، وتتوقف الملاحة فى القناة . وتبدأ مصر حربا لاستنزاف قوي العدو الإسرائيلي . ويتزوج دياب بامرأة ، لترعي شئونه وبنته .

لكن العلاقة لم تستقم بين البنت والزوجة ، ويقع الطلاق بين الأب وزوجته . واشتدت معارك حرب الاستنزاف ضراوة .

كبرت سميحة وتزوجت ، وأنجبت " حنان "

قامت حرب ١٩٧٣ ، وحررت قواتنا الضفة الشرقية للقناة . وحدثت الثغرة ، ودخل الإسرائيليون قرية " العمدة " . تشد الأسرة الرحال إلي الإسماعيلية ، وأثناء المشى علي الطريق ، ترى سميحة – قوية الملاحظة– مواقع العدو وأسلحته ومرابض دباباته . عند مشارف الإسماعيلية ، ذهبت إلي مقر قيادة لجنودنا ، وأبلغت عما رأته . شكرها الضابط المختص ، وبعد عدة أيام استدعاها، وطلب منها أن تقوم برحلة إلي قريتها ، لجمع بعض المعلومات عن أماكن معينة علي الطريق ، ولتوصيل ثلاث رسائل لبعض رجاله فى القرى الموجودة علي الطريق .

تقبل أم حنان المهمة . يبصرها الضابط بوجود مخاطر ، من ألغام ومتفجرات ، دفنها العدو فى الطريق . تتردد أم حنان خوفا علي بنتها الرضيعة ، إلا أنها تتغلب علي ترددها . مشيت أم حنان ثلاثين كيلو مترا ذهابا ومثلها ايابا .

يرحل العدو ، وتعود الملاحة إلي القناة ، وتعود الأسرة إلي قريتها .

شملت الرواية حدثين رئيسين . إلقاء أم سميحة موقدا مشتعلا علي عربة محملة بالجنود الإنجليز . والحدث الثاني قيام سميحة " أم حنان " بمهمة لصالح قواتنا أثناء الثغرة ، بمبادرة منها أول الأمر . استغرق الحدث الأول ثلاث صفحات ، من صفحة ٧ إلي صفحة ١٠ . واستغرق الحدث الثاني ثلث الرواية من صفحة ٤٣ إلي صفحة ٦٣ . وإذا مالاحظنا أن الرواية معنونة بـ " أم حنان " فسوف ندرك بسهولة أن الحدث الثاني هو الرئيسي فى الرواية ، لكنه بدا منفصلا عن الحدث الأول . زمنيا .. الأول فى ١٩٥١ والثاني فى ١٩٧٣ ، وعلي الورق الأول حدث فى صفحة ٧ والآخر بدأ فى صفحة ٤٣ . .

ولقد جاء الحدث الأول ليخبرنا أن أم سميحة بطلة ، وكان يمكن الإخبار بذلك خلال سرد الحدث الرئيسي ، فيزيد من عمق الإحساس ببطولة سميحة، وقت مخاطرتها .

ووقعت بين الحدثين ، أحداث جسام ، تأميم قناة السويس ، حرب ١٩٥٦، الوحدة المصرية السورية وانفصال سوريا عن مصر ، حرب الاستنزاف ، حرب ١٩٧٣ . وبدت هذه الأحداث مضغوطة فى حيز رواية تقع فى ٦٣ صفحة من القطع المتوسط ، منها ثماني صفحات رسوم . الأمر الذى لم يسمح بتتبع أثر هذه الحوادث فى وعي الشخصيات ، وبالتالي فى انعكاسه علي أفعالها .

ولم تنج الرواية من الوطنية الزاعقة .هتفت سميحة لأبيها :

" – أبى ، أنا أحب بلدي .. أحب (مصر) " ص ١٩ .

" كارثة الخامس من يونيو ٦٧ يومها عاد الأب من الحقل .. وقد تخشب ذراعه اليمني.. أصابها شلل ، وبات من الصعب عليه أن يحركها .. كان يضع كفه علي الوسادة بجانبه ، ويتطلع إلي يده .. يراها تشبه سيناء ، وأصبع ابهامه كأنه القناة .. وذراعه البحر الأحمر الراكد الساكن بعد أن أغلقت القناة " ص ٢٧ .

الوصف جميل حتى " ويتطلع إلي يده " .. أما بعد ذلك فهو زاعق من جهة ، ومن جهة أخرى .. لا يمكن لوعي صياد أن يتخيل خريطة مصر علي هذا النحو .

ولنستمع إلي حوار أم حنان مع الضابط الذى قابلته .

" سألها :

– ماذا يمكنني أن أقوم به من أجلك ؟

– من أجلي ، لا شئ .. من أجل مصر : قاتل " ص٤٦ .

فعبارة " من أجل مصر : قاتل " زاعقة .

ولنستمع إلي الضابط يحدثها :

" إن ما فعلتيه عظيم .. بحق ، وصدق .. شئ ليس بالقليل ، ولا هو هين .. لقد خرجت من بيتك مطرودة ، تحملين ابنتك ومعك أبوك العجوز ، كما أن زوجك يقاتل ولم توجهي سؤالا واحدا عنه .. ومع كل ذلك كنت تفكرين فى مصر ، والنصر ، والمعركة " ص ٤٧ .

فإذا تغاضينا عن " عظيم " و " لم توجهي سؤالا " .. فـ " كنت تفكرين فى مصر ، والنصر والمعركة " تخدش رهافة الإحساس .. فالشعور الوطني ، يدركه الإنسان من ثنايا الفعل والقول ، والجهر به يؤدي إلي عكس المطلوب .

ولقد وُفق المؤلف فى المزج بين الحدث التاريخي والحدث الشخصي فى أكثر من موضع . " ووقع انفصال ثان .. تم طلاق دياب من زوجته .. " ص ٢٦ فى نفس الوقت الذى انفصلت فيه سوريا عن مصر .

" وعندما وصلت أم حنان إلي الدار وجدت أن بعض أشجار البرتقال ما زالت تحمل ثمارا قليلة .. " ص ٦٢ . تزامن هذا مع انسحاب العدو الإسرائيلي من الضفة الغربية لقناة السويس ، فبانسحابه تثمر أشجار البرتقال أو أنه رغم عدوانه .. فما زالت أشجار البرتقال قادرة علي العطاء.

ولقد برع الكاتب فى وضع شخصيته الرئيسية " أم حنان " فى موقف غني بالصراع النفسي ، فهي بين شقى رحي ، تود أن تقوم بعمل وطني ، وفى الوقت نفسه تخشى علي طفلتها الرضيعة .وإذا تركتها ، فمن سيرعاها، وهي لا تريد أن تتركها ، لأنها أداتها فى التمويه علي العدو ، فتمني نفسها ، أو تموه عليها ، " لو انفجر اللغم سألقى بابنتي بعيدا لتنجو " ص ٥٨ .

ولقد صدرت الرواية فى طبعتها الثانية ، عند دار المعارف ، بالقاهرة عام ١٩٧٧ ، حافلة برسوم داخلية وعلى الغلاف ، لا تليق بدار عريقة كدار المعارف ، ولا بمؤلف كبير كعبد التواب يوسف ، فهي لا ترقى إلي أى مستوي فني ، يساعد المتلقى فى الإحساس بأي جماليات ، ولا أغالي إذا قلت أنها بدلا من ذلك ، تنفره إذا ألقى نظرة علي الغلاف أو تصفح الكتاب .

عن الزنجية الأمريكية

تحت هذا العنوان ترجم عبد التواب يوسف ثلاث قصص للكاتبة الزنجية الأمريكية . فيرجينيا هاملتون ، صدرت عن " مكتبة الأسرة " ٢٠٠٢ ، وهي سلسلة لنشر الأدب العالمي للأطفال ، ترجم لها المترجم وقدم كثيرا من القصص العالمي .

ولقد اخترت هذا الكتاب كنموذج للتعرف علي نوعية الكتاب الذين يريــد عبـد التواب أن يحفل بهم أطفالنا ، وعلي القصص التى يحب لهم أن يقرؤوها .

عن الكاتبة يقول عبد التواب يوسف فى تقديمه لها :

أنها أول زنجية تفوز بجائزة أندرسن (نوبــل لأدب الأطفــال) عــام ١٩٩٢، ونشرت الكاتبة ٢٧ كتابا للأطفال ، من بينها ١٥ رواية طويلة ، وثلاث سير، وثلاث مجموعات قصصية من الأدب الشعبي . والكاتبة تهتم بلغتها الشاعرية ، وتهتم فــى قصصها بضعف البشر وقوتهم ، وبالأفكار الإنسانية ، مثل روايتها " م . ك هيجيــنز العظيم " التى تروي فيها عن صداقة بين الطفل ولوزيخي وطفل من الهنود الأحمر ، صداقة صنعت المعجزات .

ولم تكن فرجينيا تتوقع الفوز بالجائزة بسبب لونها الأسود ، لكنها بالاســتمرار ، والإصرار ، حققت المستحيل .

واضح من السطور السابقة .. أي كاتبة يقدمها لأطفالنا . والأن نلقــى نظــرة ، نسبر بها غور القصص ، لنتعرف عليها ، وعلي الكاتبة أكثر .

<u>القصة الأولي : الناس قادرون علي الطيران</u>

تروي القصة عن معاناة الزنوج من العذاب والسخرة ، بعد خطفهم من أوطانــهم في أفريقيا ، ليعملوا ، دون أجر ، فى مزارع المستعمرين فــى الولايــات المتحــدة الأمريكية . لكن عجوزا بينهم ، يبعث الأمل فى نفوسهم ، ويذكرهم أنهم كانوا فــى وطنهم أفريقيا قادرين علي الطيران ، وعليهم أن يستعيدوا هذه القدرة ثانيــة . وردد العجوز كلمات سحرية من وطنه أفريقيا كانت تساعد علي الطيران :

- كيييم يالي .. كيييم بووويا .. تاوبى .

والمرأة التى سمعت هذه الكلمات ، وكانت تُضرب بالسوط ، سرعان ما رفعــت قدميها عن الأرض ، وأخذت تطير وطفلها فى حضنها .

ثم تبعها آخرون ، عندما سمعوا الكلمات السحرية . ســرعان مــا نفــذت إلــي دواخلهم ، وأيقظت قواهم .

وهناك من لم يستطيعوا الطيران ، فقد بعد العهد بينهم وبين أوطانهم ، وكانوا فى حاجة لمن يعلمهم الكلمات السحرية من جديد .

وجمال هذه القصة ، ينبع من الموقف الذى صورته الكاتبة ، وجعلت فيه أبطالــها يطيرون فور سماعهم كلمات من الوطن ، وينبع من تصوير قــدرة الإنســان علــي الخروج من أي وضع صعب يجد نفسه فيه ، بإعمال العقل وإطلاق الخيال ، وأن كل من يتمسك بجذوره ينجو . فمفردات الوطن تفعل فعل السحر فى نفوسنا .

والطيران فى القصة ، يحتمل إضافة للطيران الفعلي ، الإفلات ، أو الهرب مــن الوضع المؤلم الذى فرضه أصحاب المزارع علي الزنــوج ، وينبــهنا المــترجم أن الكاتبة استخدمت كلمة FLY بمعنين يطير ويهرب .

القصة الثانية : جاك والشيطان

تحايل جاك علي الشيطان ، ألا يقبض روحه لمدة عام ، ووعد أن يتوب عن الشر ، فلا يشرب الخمر ، ولا يرتكب الخطايا ، وأن يستعيد إيمانه .

يطلق الشيطان سراحه ، ويعاود جاك سيرته الأولي ، فيقبض عليه الشيطان ، ويعد جاك بالتوبة هذه المرة ، ولا يفي بوعده ، واستطاع في النهاية أن يتحايل علي الشيطان ، فلا يقرب منه طول عمره .

وحين توفي جاك ، لم يوضع مع الأخيار . ذهبوا به إلي الجحيم ، فوجد الشيطان هناك يصيح ألا يدخلوه لأنه خدعه مرتين . يظل هائما علي وجهه في الظلام ، فأعطاه الشيطان جمرات ملتهبة ، ألمت يديه ، ولم تنر له طريقه . وظل جاك ضائعا، يتخبط في الظلام .

أن أخطر ما يواجه الإنسان هو الضياع ، وألا يجد له مستقرا ، قد يستطيع بذكائه أن يتحايل ، وأن يخدع الشيطان نفسه ، ولكنه في النهاية ، لن يجد مكانا يأويه، حتى ولو كان في الجحيم ، وهنا مكمن الجمال في هذه القصة .

القصة الثالثة : ذئب وبنت صغيرة

وهي عن حكاية البنت " ذات الرداء الأحمر " المنتشرة في الحكايات الشعبية في ألمانيا وفرنسا وبلدان أخرى .

تقول حكاية فرجينيا هاملتون :

حذر الأب بنته ، ألا تبتعد عن البيت خشية الذئب . وما أن يذهب الأب ، حتى تغري الزهور الجميلة البنت ، فتخرج لالتقاطها . ابتعدت عن البيت ، وراء الزهور .. وفجأة وجدت أمامها ذئبا كبيرا . كانت الفتاة تترنم بأغنية جميلة ، نالت إعجاب الذئب ، فطلب منها أن تستمر في الغناء .

استمرت البنت في الغناء ، وهي تتراجع إلي الوراء ، حتى دخلت بيتها ، وأغلقت الباب دون الذئب .

هذه قصة انجذاب النفس إلي الجمال .

بالنسبة للبنت ، جذبتها الزهور ، فانطلقت وراءها ، ولكن لأن نواياها حسنة (جمع بعض الزهور للاستمتاع بألوانها وشذاها) فقد أفلتت من الذئب رغم خطئها (عدم الأخذ بنصيحة الأب) .

بالنسبة للذئب ، جذبته الأغنية الجميلة ، ولكن لأن نواياه شريرة ، فلم يفد من جمال الأغنية ولا من إعجاب البنت بالزهور ويوقع بالبنت ، بل كان جمال الأغنية ، وإعجابه بها ، هو الذي مكمن البنت من استخدام ذكائها والإفلات منه .

فيا لها من حبكة رائعة .. حبكة تقول أن الجمال فى خدمـــــة أصحـــاب النوايـــا الحسنة وأن الأشرار ، قد يستمتعون به بعض الوقت ، لكنهم لن يفيـــدوا منـــه، بـــل سيكون فى النهاية عونا عليهم .

ويا لها من اختيارات فى القصة ، قدمها لنا المترجم . فقـــط لـــو امتنـــع عـــن الاختصار أحيانا ، والتعليق داخل النص ، أحيانا أخرى فى بعض ترجماته ، لأنه مـــا من داع لذلك ، ولكي تصل القصص لمتلقيها بكل جمالها .

نظرة عامة

الكاتب مولع بوضع بطله فى صراع ضد نفسه فى أكثر من حكايـــة ،و البطـــل يخرج من أزمته بعد أن تتكشف له حقيقة الظروف .. ما يحيط به .. وعدم صحـــة الشائعات .. أو فكرة خاطئة تكونت عنده .. والكشف يأتي من الواقع .. ومع تطـــور الأحداث .. لذلك فهو مقنع للشخصية فى الحكاية وللمتلقي معا .. رأينا هذا فى كثـــير من حكايات العائلية .

والتشكيل فى كثير من الحكايات يشي بمضمونها كما رأينا فى قصـــة " خيـــال المآته فى المكتبة " .. تشكيلها يتحدث عن ضرورة حماية المكتبة من غزوات الحمـــلم .. وهو نفسه المضمون الذى يريد الكاتب أن يوصله للمتلقى .. أي حماية المعرفـــة ، أو الاهتمام بالمعرفة .

وتجمع روايته " أم حنان " بين ميزتي الكاتب .. الصراع ضد النفس ، والتشـــكيل الذى يشي بالمضون .أم حنان وصراعها ضد نفسها .. تود أن تقوم بالمهمة الوطنيـــة .. لكنها تخشي التضحية برضيعتها ، فضلا عن التضحية بنفســـها .. لكـــن الـــهدف الأكبر ، يجعلها تقبل المخاطرة ، وتقوم المهمة .. فهذا التشـــكيل يقـــول أن المـــهام الكبرى لابد لها من قدر من المخاطرة .. وهذا هو المضمون الذى يود الكاتب بثـــه فى نفس المتلقى ..

والمضمون فى ابداعه منحاز دائما للإنسان البسيط .. وإلي التقدم .. وإلي الترقى بالحياة . الإثرة . ترابط الأسرة أساس المجتمع .. الشجاعة .. أهمية الحنان للإنســـان . أهمية الخيال لدفع التقدم .. الحب .. سعي الأولاد للحصول علي حب الوالديـــن .. نبذ الأفكار الخاطئة .. نبذ التقاليد البالية .. حتى لو رسخت فى كثير مـــن حكايـــات التراث.. صون المعرفة .. ودور الفن فى ذلك وفى حياتنا .. الدفاع عن الوطن مهما كانت المخاطرة .. حرية الرأي ونبذ العقاب البدنى .

وعادة ما تكون البطلة فتاة .. والاهتمام بالفتاة فى القصص ، يرسخ فـــى العقـــل أهمية الجنس الأخر ، وأنه ليس مهمشا فى الحياة .. وهذا يعشش فى وجدان الصغار ، وينعكس علي سلوكهم فى الكبر . وهكذا ينتصر عبد التـــواب يوســـف للمـــرأة ، المظلومة فى المجتمع بسبب التقاليد والأعراف البالية والأفكار الخاطئة . والأطفـــال

دائما حاضرون فى الحكايات . وتشخيص الأطفال فى الأعمال الموجهة إليهم ، يزيد من تأثيرها عليهم عندما يرون أنفسهم يلعبون ويتشاقون ويفكرون .

والكاتب فى ترجماته .. ينحاز لهذه القيم والمبادئ أيضا .. الانجذاب للجمال " ذئب وبنت صغيرة " الانتماء للوطن .. " قادرون علي الطيران " ونجده أيضا يتسق مع نفس هذه القيم والمبادئ عندما يقدم القصص الشعبى.. وفى دراساته ومقالاته عن أدب الأطفال .. وعن الموروث الشعبي.

والمادة فى سلاسل مثل البيئة ، ومصر الحضارة ، ومصرى فى أمريكا ، والكتيبات مثل القاموس والأطلس تحوى الحقائق العلمية والتاريخية ، ممزوجة بخبرة الكاتب فى الحياة والفن ، مضافا إليها البعد الإنسانى ، ومقدمة بشكل قصصى ، يغلب عليه عنصرى الحوار والتشويق ، فيشعر الطفل بالمتعة وهو يحصل المعرفة .

إننا أمام كاتب منحاز للناس البسطاء .. منحاز للقيم.. معاد للتخلف . . طامح دوما لترقى الحياة ..وجعلها أكثر فهما ، وسعادة لمن يمارسونها .

هذا كاتب تتمتع كتاباته ببلاغة خاصة للكتابة للأطفال ، حيث يشع من كلماته "لطف " أخاذ .

**الأعمال التى سنتعرض لها فيما هو آت ، هى المقدمة
للفترة السنية من ٨ - ١٦ سنة**

في الرواية والقصة الطويلة

(بيبى) السر غير الغامض

طارق مستلق فى حجرته . يدخل من الشباك " نونو " ، صبى مثله قـــادم مـــن كوكب آخر . ينشد نونو صداقته ، ويتطلع إلي زيارة مصر القديمة . يصحبه طارق فى رحلة ، قامت بها مدرسته لزيارة أهرامات الجيزة . وهناك يلقيـــان " بيـــى " . مومياء مصرية لصبى مثلهما . تلى عليها لصان ، بعض التعاويذ السحرية . تنـــهض من سباقا الأبدي ، فيخطفانها . وبعد عدة مفارقات لإنقاذ الصـــبى مـــن أيـــدي اللصين، يعود نونو إلي كوكبه ، ويعود الصبى بيى إلي رقدته الأبدية .

القصة ، كما نرى ، حافلة بمادة تثرى الخيـــال ، وتجعـــل الأولاد والبنـــات يتشوقون لمتابعة المغامرة فيها .

الشخصيات الرئيسية :

طارق : قارئ لمجلات الخيال العلمى ، لذلك لم يدهش طويلا ، عندما أخـــبره

نونو أنه قادم من كوكب آخر . ولكنه عجز عن إقناع والديه بذلـــك . و لمـــاذا مرض طارق وارتفعت درجة حرارته ، من وقع الصدمة (لقاء نونو) ، مع أنه كما رأينا تقبل فكرة ورود الصبى من كوكب آخر . ذهب به والـــداه إلي الطبيـــب ، وظل راقداً بضعة أيام ، حتى جاء موعد الرحلة إلي الآثار .

نونو :

صبى قادم من الفضاء ، يود التعرف علي أهل الأرض . نكتشف من الحوار أنه يجيد اللغة المصرية القديمة . " قال نونو : إنه يتحدث باللغة الهيروغليفية " ص ٥٤. ونعلم من السياق أنه يعرف عن آثار الفراعنة ، وتاريخ ملوكهم الكثـــير ، " إننـــا ندرس هذه الحضارة فى مدارسنا " ص ٥٧ . وعلي هذا يكون منطقيـــاً تشـــوقه لزيارة الآثار . ليرى علي الطبيعة ما درسه فى المدرسة .ولكن يبقى السؤال معلقـــا: كيف عرفوا فى كوكب بعيد ، تاريخنا ؟! .

رمضان :

سائق الباص ، الذى أقلهم إلي منطقة الآثار . مستلهم من شخصية حقيقيـــة ، فقد صدَّر المؤلف روايته بإهداء إليه . شخص لطيف ، يعشق الموسيقى . " حـــرك السائق رمضان مؤشر المذياع وتوقف عند محطة تبث الموسيقى الخفيفـــة وقـــال : نستمع لهذا الفاصل الموسيقى أحسن من سماع الغناء " ص ٦٣ . وهو يعرف بعـض العادات الفرعونية . يحمل حذاءه تحت أحد إبطيه ، كعادة الفراعنـــة فى إحـــدى الفترات ، ويحكي عن تاريخ تحتمس الرابع ، وكيف تحققت نبـــوءة أبي الهـــول ، بمكافأته بتاج أمير الوجهين .

سائق مثقف . ربما من كثرة تردده علي مناطق الآثار ، وسماعـــه لمـــا يقولـــه المرشدون السياحيون ، قد التقط كلمة من هنا وأخرى من هناك . لكن أن يلـــم بالتاريخ الفرعوني كما رأينا .. فمسألة فيها نظر . سائق يحب الموسيقي . وفكرتنـــا عن السائقين ، ولعهم بالأغاني الزاعقة ، وأنهم لا يتحدثون فى التـــاريخ القـــديم . ونحن لا نعترض علي سائق يحب الموسيقي ويلم بالتاريخ ، ولكن كان علي الروايـــة وهي تقدم مثل هذه الشخصية ، أن ترينا كيف حدث هذا ، لنقنع به .

بيبى :

الرواية تحمل اسمه . مومياء لصبى أيقظه لصان بالسحر من سباته الأبدي . ولا نعلم لماذا أيقظاه ، ربما ليفيدا منه كمومياء ، يبيعاها للعلماء ، لإجراء أبحاث عليـها. أما وقد أيقظاه ، فكيف تكون الإفادة منه . هل سيميتانه ثانية ، ويبيعانه . لم تشـــر الرواية إلي شئ من ذلك ، وتركت أمره غامضا .لعل الراوى أراد أن يضفى نوعــا من التشويق ، علي أحداثها ، ولكي يتمكن من ذكر بعض المعلومات عن تـــاريخ الفراعنة .

حمدان :

حارس هرم منكاورع . مُلم بالتاريخ الفرعوني . وسوف نفـترض أنـه سمـع الكثير من شرح مرشدي الآثار للسـياح . فهل يمكنه ذلك من الإلمام بالتاريخ ، كما قدمته الرواية .. ؟!

المعالجة :

بدأت الرواية ، بداية ، تغرى بالفضول ، لمعرفة ، كيف سيسلك فتي قادم مـن الفضاء ، إلي بئية تختلف عن بيئته ، وينتمي لثقافة ، تختلف عن ثقافة الفتيان الذيـن التقاهم .

وتوقعنا أن نسعد بمغامرة ، يخوضها الفتيان ، علي رأسـهم طـارق ونونـو ، لتخليص الفتى المخطوف بيبى ، من بين أيدي اللصين ، وما يسـتتبعه ذلـك مـن مآزق، ومطاردات .

خاصة ، وذلك يجرى ، فى أرض محوطـــة بـالغموض والأســرار ، منطقـة الأهرامات، والتى ما زالت الحفريات والاكتشافات ، فيها تتوالى ، ولم تبح بكـــل أسرارها بعد.

لكن لم تكد تمضى بنا الرواية ، قليلا ، حتى علمنــا أن نونـو ، لا يختلـف فى سلوكه عن أهل الأرض ، وأن ثقافته مثلهم ، فقد درس الحضارة المصرية القديمـة . كما لم يقع بيبى فى أية مآزق . فقط يفلت حينا من اللصين ، ويقع بـين أيديـهما حيناً آخر ، دون إشكاليات حقيقية تستدعى التدبير ، والمغامرة .

ووقعت الرواية ، فى شرك ، ســـرد معلومـــات عـــن التـــاريخ الفرعـــوني ، وبالتفصيل.

" قال طارق :

– لقد قرأت كثيراً عن هذا الهرم ، فمهندسه المعمارى كان اسمه ايمحوتب .

قال نونو :

كل ما أتذكره عن هذا الهرم أنه عندما تم بناؤه ، كان عبارة عن كتلة من البناء ترتفع فى ست طبقات غير متساوية فى الحجم إلي علو ٢٠٤ أقدام ، وكان طـــول قاعدته ٤١١ قدما من الشرق إلي الغرب ، ٣٥٨ قدما من الشمال إلي الجنوب .

قالت ريهام :

ولكن أين توجد الحجرات الداخلية ؟

قالت السيدة نادين :

يتكون البناء السفلى للهرم المدرج من بئر عميق يفضى إلي عدد كبـــير مـــن الممرات والحجرات .. فى البداية حفـــروا بـــئراً مســـاحتها ٢٣ قدمـــاً مربعـــاً، وتصل إلي عمق ٢٨ قدما تحت سطح الأرض ، ثم حفروا نفقاً مساحته ٧٠ قدما ثم عادوا وحفروا البئر إلي عمق ٩٢ قدما ، وترتب علي تعميق البـــئر أن انخفضـــت الأرضية حتى أصبحت مولقا ينحدر تدريجياً " ص ٤٨ .

وتكررت هذه المعلومات فى صفحات كثيرة ، فى الرواية .ويشيع بين كتـــاب الأطفال اعتقادان ، لا أدري من أين نبعا ، ربما من الرغبـــة فى تربيـــة الصغـــار ، وتعليمهم . ويأتي هذا للأسف علي حساب الرغبة فى امتـــاع الصغـــار ومخاطبـــة وجدالهم . الاعتقاد الأول : امداد الطفل بالمعلومات .

إن المعلومات ، يستطيع الطفل الحصول عليها مـــن المدرســـة ، والكتـــاب ، والمجلة.

وهكذا ضحت الرواية ، بما كان يمكن أن يثرى وجدان الطفل .. أحاســـيس الدهشة والفضول (الفتى القادم من الفضاء) وأحاســـيس التضـــامن والتـــآزر ،

والتخلص من المأزق (الفتى الفرعوني المخطوف) .وأدي ذكـــر معلومـــات ، لا تحتاجها الرواية ، فى بناء شخصية ، أو فى إلقاء ضوء علي حدث ، أدى إلي عـــدم تدفق الأحداث ، وإلي توقفها فى بعض الأحيان .

الاعتقاد الثاني : تلقين الطفل قواعد السلوك و الأخلاق الفاضلة .

" قالت المعلمة للأستاذ رؤوف مدير المدرسة للأولاد والبنات :

– الاقتراحان يستحقان الموافقة عليهما ، لكـــن بعـــد إذن الأســـتاذ رؤوف سنصوت عليهما كما يفعل الديمقراطيون " ص ٢٤ .

أما كان يكفى " سنصوت عليها " أليست هذه ديمقراطية .. لماذا " كما يفعـــل الديمقراطيون " .. إنها الرغبة فى التلقين الأخلاقى المباشر .

" ابتسم الزائر القادم من الفضاء الخارجي وقال :

لقد خضعت لعمليات تجميل حتى أقترب من شبه إنسان الأرض .

لماذا لقد كنت جميلا عندما كنت علي طيعتك التى خلقك الله عليها"ص٣١.

" كنت جميلاً عندما كنت علي طبيعتك " فيها الكفاية ومضمر فيها مـــا يـــود الكاتب أن يقوله ، فلماذا " التى خلقك الله عليها " .. ؟!

إن النفس تنفر من التلقين المباشر ، ومن التأكيد علـــي المعلومـــة .. كمـــا أن المباشرة تقلل كثيراً ، إن لم تذهب بالإحساس بالجمال من الموقف ، أو من الحوار .

" – علي جميع الركاب من التلاميذ والتلميذات عدم إخراج أياديهم خـــارج نوافذ الأتوبيس وكذلك رؤوسهم الصغيرة .

قالت لما :

– وبدأت قائمة الممنوعات فى الظهور .

قالت سعاد :

– لا أحد يغضب من التعليمات فهي إرشادات لسلامتنا من الأخطار"ص٣٥.

لو توقفت هذه الفقرة عند " وبدأت قائمة الممنوعات فى الظهور " ، لأحســـنا بالجمال النابع من الروح الفكهة ، ولاستشعرنا ، دون مباشرة ، ما فيها من حـــس

أخلاقى ، دون نفور أو ضيق أن أحداً يأمرنا بشيء لنطيعه ، أما التزيد والتأكيد علي ما يريده الكاتب " إرشادات لسلامتنا من الأخطار " فقد نال من الروح الفكهة ، وطغى علي الإحساس بالجمال .

ثم يتبع الكاتب ذلك بموقف مثالي أخلاقى ، بعيد عما نعرفه من شقاوة الأولاد، عندما يقول أحدهم : " لم أحرج نفسى لقد أخطأت . لذا وجب علي السائق أن يصحح لي هذا الخطأ " ص ٣٥ .

وتعليم الأولاد حسن السير والسلوك يلح علي الكاتب ، فلا يكتفى بما سبق.

" قالت لها :

– علينا أن نحترم إرشادات المرور حتى لا نصاب بأذى ولكن ماذا تقصدين من هذا الكلام ؟!

قالت سعاد :

– وعلينا احترام تعليمات السائق رمضان حتى لا نصاب بأذى .

قال الأستاذ رؤوف الذى كان يسمع حوارهما :

– أو بمعنى أدق علينا أن نحترم قائمة الممنوعات حتى لا نصاب بأذى "ص٣٦.

وهذا فضلا عما ذكرناه من شأنه ، تطويل ، يهلهل نسيج الرواية ، وقد تكرر فى مواضع كثيرة ، ففى صفحة ٢٩ بأكملها حوار عن فتح الشباب من عدمه ، وكان من الممكن تركيز الحوار فى عبارتين بين طارق ووالده ، تؤديان نفس الغرض. كما حفلت الرواية بمقدمة ونبذات عن الشخصيات ، نرى أنه لا داعي لها ، لأنها جاءت خلال السرد ، وبشكل أفضل ، غير مباشر .

وقد وردت فى الرواية بعض المعلومات ، تنقصها الدقة . " لذلك اهتموا بقبورهم ولم يهتموا ببيوتهم " ص ٤٣ .. يقصد اهتموا بالقبور فأنشأوها من الحجارة .. لكن ليس كل الناس قد أنشأوا قبورهم من الحجارة ، الملوك ورجال الدولة فقط .. كما أن هذا لا يعني أنهم لم يهتموا ببيوتهم .. وزيارة إلي المتحف المصرى ، ترينا مدي اهتمامهم بالأثاث وأدوات الزينة وكل ما حفلت به بيوتهم

من اهتمام .

وتقول الرواية أن الأولاد تجمعوا داخل الهرم .. كيف وبه حجـــرة ضيقـــة ، مسموح بزيارتها ، لا تسع إلا عدة أفراد ، والطريق إليها ممر ضيق ، لا يســـمح إلا بمرور شخص واحد منحنى الظهر ، يتبعه آخر وهكذا .

" صمت يبى وترك حمدان يتحدث :

– لم تتحقق بصفة قاطعة ملكية هذا الهرم لمنكاورع إلا علي يـــد الكولونيـــل هوارد فيس ، ما بين عام ١٨٣٧ ، وعام ١٨٣٨ ميلادية " ص ٨٨ .

وفى نفس الصفحة يقول حمدان :

" ماذا تقولان من فيس هذا ؟ أقول لكما من قديم الزمان حتى الآن يـــأتي إلي البلاد مستكشفين (مستكشفون) للآثار من بلاد أخرى ، بريطاني أو فرنســـي أو سويدي مبعوثين من جهات رسمية عالمية مثل المنظمات التابعة للأمم المتحدة وهؤلاء يعملون تحت سمع وبصر الحكومة . وفيس واحد من هؤلاء " .

كيف يكون فيس واحداً من هؤلاء ، وقد تحقق من ملكية هرم منكـــاورع فى عام ١٨٣٧ ، والأمم المتحدة ومنظماتها ، نشأت بعد عام ١٩٤٥ ميلادية .. ؟!"

وقد صدرت الرواية لمؤلفها أحمد زحام عن إقليم القناة وسيناء الثقافى فى عـــام ٢٠٠١ م ، وتقع فى مئة صفحة من القطع الكبير .

مدينة الدخان وإيقاظ الفراعنة

راشد صبى ، يضطر لترك دراسته ، بعد مرض والده ، ليعول عائلته المكونة من أم وبنتين ، فضلا عن الأب المريض .. يعطيه عمه مركبا ليصطاد السمك .. يبيـــع راشد السمك لعمه أحيانا ، وفى السوق أحيانا أخرى .

وذات مرة يصطاد راشد هدهدا ذهبيا ، اتضح أن ساحرا فرعونيا سجن فيـــه الصبى آني ، حسدا ، أوغيرة منه ، فالصبى ذكى ، ومتفوق فى دراســـته ، بينمـــا الساحر له بنات قاصرات العقل .

وبالصدفة يفك راشد أسر آني ، الذى رغب فى العودة إلي طيبة (الأقصـــر) ، لكن الزمن تغير ، والناس غير الناس ، فيعمل علي سفينة نيلية .

وبالتوازي مع هذا ، يضفر المؤلف فؤاد قنديل ، خيطا آخر عـــن التلـــوث ، سواء من التدخين الذى أصاب رئتي والد راشد بالعطب ، أو من عادم الســـيارات

ودخان المصانع، وما يفعله فى المدن ، خاصة الكبرى ، كمدينة القاهرة .

ونحن فى هذه الرواية نطالع قصتين ، قصة راشد ، وقصة آنى ، فى الأولى نرى رجولة راشد المبكرة ، عندما أجبرته الظروف على إعالة عائلته الصغيرة ، والتعاون الذى لاقاه من عمه ، وفى نفس الوقت ، لم يغادره طموحه ، والتحق بالدراسات المسائية .

ويلعب التلوث دوراً فى حبكة هذه القصة ، فهو سبب مرض الأب ، الذى ترتبت عليه الأحداث التى تلته . كما أتاحت هذه الحبكة ، بطريق غير مباشر ، التحذير من أخطار التدخين والتلوث .

ولقد عاني راشد فى محاولته الحصول علي عمل . عمل عند جزار ، صفعه عند أول خطأ منه . عمل عند بائع حبوب ، فطلب منه أن ينقل جوالات من الحبوب ، فوق طاقته ، إلي داخل الدكان . عمل عند صاحب مكتبة ، فصادفه سوء الطالع واتُهم بالسرقة .

وعندما عرض عليه عمه العمل صياداً : " لم تكن سهلة فى البداية .. صحيح أن السمك فى الماء والشبكة تنزل إليه وتفتح صدرها وتحاول أن تجمع أكبر كمية من السمك ، والفتى فى القارب يبذل جهده ليجذب الشبكة ، لكن السمك يبذل كل جهده هو الآخر ، لكي يفر منها .. وأحياناً يكون معظم المحصول صغيراً جداً" ص ١٤ .

ومع هذا الوصف الجيد ، يقرر الكاتب فى نفس الصفحة :

" فقد استطاع بعد محاولات كثيرة أن يحصل علي كميات طيبة من السمك ، بجهده المنفرد ..وكان فى كل مرة يتأمل ويدرس المحصول ، ويحاول أن يعرف السبب .. متى يحصل علي السمك الكبير وأين .. ماذا يفعل بالضبط ليحصل عليه؟ " .

ونحن نسأل أيضا لأننا لم نره يفعل ذلك ، ماذا يفعل بالضبط ليحصل علي السمك .. ؟!

ومتى يحصل علي السمك الكبير ..

لقد قدمت الرواية راشداً وهو يعاني فى بداية عمله فى الصيد ، فلماذا لم تقدمه وهو ينضج ، ويتقدم فى العمل .. ؟!

لكن براعة المؤلف فى التصوير تغلب عليه ، فيعود إلي ممارستها فى نفس الصفحة أيضا :

" لكنه سرعان ما يشتاق إلي المشهد الجميل .. مشهد الشبكة وهي تخرج من الماء وتستقر علي أرض القارب وبين خيوطها يتقافز السمك الفضى الذى يتألق تحت أشعة الشمس .. يتلوي ويثور غاضباً ورافضاً للقيود ، باحثاً عن منفذ للهرب من أسر الشبكة " .

وتخون قنديل براعته ، عندما يلجأ إلي ذكر البديهيات . قال العم شاهين لراشد:

" القارب لك .. تعمل فيه فقط وعندما تقرر تركه ، سلمه لي مرة أخرى .. لا يحق لك أن تبيعه وأنا أعطيه لك لسببين . هل تعرف ما هما ؟

فكر راشد وقال : أعرف سبباً واحداً .

سأله عمه عنه ، قال راشد :

– أنك تعطيني القارب لأنك عمي ، وأنت مسئول عني بعد أبي .

قال العم :

– هذا صحيح . حقك علي يا ولدي ، أن أساعدك وأساعد أهلك ، لكن السبب الثانى هو أنك فكرت فى العمل عندما وجدت أسرتك فى حاجة إلي ذلك ، بعد أن فاجأ المرض أباك وثقل عليه حتى منعه من العمل .

قال راشد : يا عمي هذا هو التصرف الطبيعي .. وهذا هو الواجب .

قال العم : أحسنت .. هذا هو الواجب .. وقد علمنا أبونا أن نحيي ونحترم من يعرف الواجب ويؤديه .

قال راشد : شكر ا لك أيها العم الطيب .

قال العم وهو يعانق راشداً بقوة وفى عينيه دموع وليدة :

– أنت ولدي .. وأنا أبوك الثاني . أنا فخور بك

قال راشد : شكرا يا عمي .. متعك الله بالصحة " ص ١١ .

فعبارات مثل " أنك تعطيني القارب لأنك عمى " و " أنت مسئول عني بعد أبي" و " يا عمي هذا هو التصرف الطبيعي .. وهذا هو الواجب " و " أنت ولدي .. وأنا أبوك الثاني " بديهيات لا تضيف جديداً إلي وعي المتلقى .

أما الأدب الجم الذى أعتقد أنه يصيب الأطفال بالضحك مثل " شكرا لك أيها العم الطيب " . كانت " شكرا " تكفى . و " متعك الله بالصحة " .. أي صبى فى حياتنا يقول ذلك . هذه العبارة مستعارة من عالم الكبار . وعبارة مثل " هو أنك فكرت فى العمل عندما وجدت أسرتك فى حاجة إلي ذلك " زائدة ، لأن مضمونها مفهوم من السياق .

ويقول الكاتب فى صفحة ٢١ :

" رأي وهو منطرح علي ظهره الأسماك الكبيرة والصغيرة .. الذهبية والفضية وهي تتقافز وتنثر ذرات الماء من فوق أجسامها وترتطم بدوبار الشبكة ، والذرات تتألق كالبلور عندما تسقط عليها أشعة الشمس . كان قلبه يرقص فرحاً .. الشبكة عامرة .. الحمد لله . قالها وهو سعيد جداً . لقد نجحت خطته بإطالة الحبل وبالصيد فى هذا المكان البعيد عن العمران والخالي من الصيادين " .

لقد رقصنا معه ، وعايشنا خطته التى نجحت ، فلماذا التأكيد والتقرير بعد ذلك بقليل علي لسان راشد :

" الحمد لله .. ما هذا الكرم ؟ ! .. ما هذا الخير ؟! الدنيا جميلة ، ما دام الإنسان يفكر ويعمل الخير فسوف يحصل علي الخير الوفير " .

هذا عن قصة الفتى راشد ، وهى قصة قائمة بذاتها ، فماذا أفادت قصة آني .

" كشف آني لراشد عن مواضع فى بدنه ظهرت بها الأورام الصغيرة والدمامل والبقع ، وقال أنها تنتشر بجسمه بسبب هذا الهباب الذى تسقطه السيارات وتبثه فى كل شئ .. حتى العيون . وقد رأي هذه البثور لأول مرة عندما كان ينزل للاستحمام فى النهر منذ ثلاثة أيام " ص ٤٢ .

هذه العبارات تدعم الخط الموازي فى القصة الأولي ، عن التلوث . وكان يمكن الاستغناء عنها خاصة أن هذه الكلمات غير مقنعة . فصبي فرعوني لا يستطيع أن يقول " هباب " ، وهو لم يدرك بعد ماذا تعنيه سيارة ، وماذا يعنيه عادم . والمدة البسيطة التى قضاها منذ فك أسره ، ليست كافية لأن يمرض جسده بهذه السرعة وقد قضى أغلبها فى بلدة ريفية صغيرة .

" ما إن عاد راشد إلي بيته فى هذا اليوم حتى عرض علي أمه رغبته فى الالتحاق بالدراسة من جديد ولو فى مدرسة مسائية ، وإذا تعذر فلتكن صباحية ويكفى أن يعمل بالصيد ساعات الغروب والمساء . لقد أثار آني فى نفسه حماسه للعلم ، وشجعه علي أن يطلبه حتى آخر يوم فى عمره " ص ٤٤ ، ٤٦ .

وإذا ما استثنينا هذين الأمرين (التلوث والتعليم) ، فقصة آني مع الساحر ، قصة قائمة بذاتها ، ولم تفلح محاولة الكاتب فى مزجها بقصة راشد .

" لقد لاحظوا حبه للعمل والتعاون وبعده عن الأنانية وحبه للحق والصدق فى كل ما يقول ، ورفضه الشديد للكذب والنفاق ، وقد حدثت الكثير من المواقف التى أكدت ذلك لهم ، ولذلك كانوا متمسكين به ، يشعرون أنه كائن نادر وجميل، لا يجب أن يفقدوه أبداً " ص ٤٤ .

لم نر موقفا واحداً من المواقف التى أكدت حبه للصدق ورفضه للكذب .

وكل ما نعرفه عن آني جاء تقريراً :

" كنا نعيش أنا وأمي فى سلام وسعادة .. وكنت وأخوتي نمتاز عن غيرنا بالذكاء والذاكرة القوية .. كما كنا نحفظ تعاليم الرب كاملة .. " ص ٣٠ .

والموقف الذى يصور آني ، جاء علي لسانه وهو يحكي :

" فى مرة كنت أسير فى الطريق متجها إلي المدرسة فوجدت رجلاً قويا ، كان معروفا بالغنى ، يصرخ فى رجل فقير ويسيء معاملته ، قلت : لعله أخطأ فى حقه ، لكنه كان غليظا ، ولم أحتمل أن أسكت فقلت له :

– لماذا تقسو علي هذا الرجل .. هل هذا يسر قلبك ؟ إن الظلم لا يتفق مع شيم الكرام .

صرخ الرجل القوي في وجهي ، وصرخ في وجوه كل الذين تحدثوا إليه بعدى، تذكرت ما قاله أحد الحكماء ، فقلت له بهدوء :

– لا تنشر الرعب بين الناس ، فهذا أمر يعاقب عليه الرب " ص ٣٢ .

وحوارات أخرى ، تشبه هذا الحوار ، لكنها في النهاية لا تضيف جديداً ، لقصة صبينا راشد ، الذى اضطرته الظروف لإعالته أسرته .

ويجتهد الكاتب في إيجاد مبرر ، يسوغ إقحامه قصة آني علي قصته الأصلية :

" لدي قدرة علي معرفة الأماكن الصالحة للإقامة .. وأهم عنصر هو الهواء وكذلك الماء ، وهواؤكم ملوث جداً ، إنه أقرب إلي السخام وقل مثل ذلك علي المياه .. جسمي يخبرني أن الجنوب أفضل " ص ٤٨ .

وكأننا كنا في انتظار صبي فرعوني ، ليحدثنا عن التلوث .. ويرد عليه راشد في نفس الصفحة :

" وإذا أردت الجنوب فيمكنك أن تعيش وتعمل في منطقة جديدة ونظيفة تماما هي توشكى " وكأن من مهمام القصة أن تعلن عن مشروع توشكى لاستصلاح الأراضى الزراعية .

وإذا جارينا الكاتب ، وتغافلنا عن محاولة الربط المتعسف بين توشكي وقصتي راشد وآني ، فهل الذهاب إلي توشكى ، سوف يحل مشكلة التلوث في الوجه البحرى..؟!

ليت الكاتب قدم قصتين منفصلتين ، فالأولي مقنعة ، وشخصية راشد ، كما رأينا مرسومة بعناية .. وكلما تقدمت الأحداث ، نضجت أكثر .. أما قصة آني فكانت في حاجة إلي عناية أكبر ، لتستقل بنفسها ، فنحن لا نعرف ماهية الصراع بين آني والساحر ، ولماذا أسره في هدهد ذهبي .. هل هي الغيرة من صبي ذكي ، له قدرات غير طبيعية .

هل لآن آني وقف في وجه الغني لأنه يسئ معاملة رجل فقير ، والساحر منحاز إلي موقف الغني ، لم تخبر القصة صراحة عن شئ مؤكد ..

ويبدو أن إيقاظ الفراعنة ، سوف يصبح طرازاً شـائعاً ، فى القـص المعـاصر للأطفال ، فقد أيقظ أحمد زحام صبيه بيبى فى روايته " بيـبى والسـر الغـامض " ليحدثنا عن تاريخنا الفرعوني بعد أن عرفناه ، وكذا يفعل فؤاد قنديل فى روايتـه ، فيوقظ لنا آبي ليحدثنا عن أهمية الهواء النظيف ، وأهمية مشروع توشكى..!.

هذا وقد صدرت رواية " مدينة الدخان " عن " كتاب قطر الندي " فى نوفمبر ٢٠٠١ ، وتقع فى ٤٨ صفحة من القطع المتوسط ، و شغلت رسوم لا بأس بهـا للفنان كمال عبده تسع صفحات ، ويبدأ القص من الصفحة الرابعة .

عاقبة الغرور والخطاب الأخلاقي

نحلة لم يعجبها أن يأخذ الإنسان العسل من الخلايا ، وهو ثمرة عمل شهوراً طويلة ، بدءً من امتصاص الرحيق من الزهور ، إلى إفرازه عسلاً في الخلايا .

" وشهقت النحلة متعجبة وهى ترى ما جمعه النحال من أقراص عسل تكونت في آنية حتى صارت مثل جبل " ص ٨ وأخذت هذه النحلة ، تحرض زميلة صغيرة مثلها للتمرد علي هذا الوضع :

" انظرى ماذا فعل بمملكتنا هذا النحال – الآدمي الشاهق مثل جبل – وكيف له أن يسطو علي شقاء عمرنا بهذه القسوة ؟ ولماذا نترك ممالك النحل مناطق مستباحة له ليفعل بها ما يفعل ؟!! " ص ١٢ .

وبالفعل تستجيب لها النحلة .

" وأنا أيضا مغتاظة جداً مثلك يا صديقتي ، ولكن أشد ما يغيظني أن يسطو الآدمي علي كدنا وعرقنا يبعثره يمينا ويساراً في ما يستحق وما لا يستحق ، والأشد ألما أن بعض النسوة من بني الإنسان يدهن وجوههن به ، وهن في حالات استرخاء تام وراحة ، بدعوى محافظتهن علي طراوة الجلد ونضارته !! " ص ١٥

ويزداد الغضب بالنحلة ، وتلسع ابن النحال ، وتفقد حياتها ثمناً لذلك .

وعندما يصل الأمر إلي الملكة ، تحاول أن تهدئ من ثائرة النحلة المتمردة :

" مع السنين استأنسنا الإنسان وأبدي اهتماماً ملحوظاً بنا : صنع لنا خلايا فخارية مبطنة بأعواد البوص ، ثم طور خلاياه الفخارية إلي خلايا خشبية " ص٣٣.

لكن النحلة المتمردة لم تقتنع بالمنفعة المتبادلة بين الإنسان والنحل . وتقرر أمراً . دعت زميلاتها للهجوم على بني الإنسان و " امتصاص الشهد من العيون الشمعية السداسية ، بدلاً من السفر آلاف الأمتار وراء رحيق الزهور " ص ٣٧ .

واستشرت دعوتها ، فأقبلت النحل علي امتصاص العسل ، وحين لم يجد النحال ما ينشده من عسل ، انصرف عن العناية بالخلايا ، وكذا فعل ابنه الحارس الصغير ، الذى كان يقتل الدبابير والسحالى والثعابين والنمل . وهجمت هذه الحشرات علي الخلايا ، تلتهم النحل والعسل .

أما النحلة المتمردة ، فقد كانت فى انتظارها علي باب الخلية سحلية كبيرة .

إن مأساة هذه النحلة ، كما تروى القصة ، أنها لم تستطع أن تدرك أهمية تبادل المنفعة بين النحل والإنسان ، فكانت النتيجة الخراب لمملكة النحل ، والموت لها .

بدأ الكاتب قصته بجمل تقريرية :

" الغرور الذى يفسد طيبة النفس ويفقدها براءتها واطمئنانها ، هذا الغرور القاتل نفخ النحلة الصغيرة المدللة التى لا تعرف حال الدنيا ، اغترت النحلة الصغيرة ، فنفخت ورمت سلاحها غير مهتمة بالعمل . واقشعر جسدها وهى ترى زعابيب كل موسم قادمة مع النحال الآدمي الشاهق مثل جبل " ص ٦ .

فى خطاب أخلاقى مباشر ، يقرر لنا الكاتب أن الغرور يفسد طيبة النفس ويفقدها براءتها واطمئنانها ، بدلاً أن نستشفه من تعاقب الأفعال فى القصة . وهو لا يداري هدفه فيعلنه فى العنوان " عاقبة الغرور " . وطوال القصة لم نر ، موقفا تدللت فيه هذه النحلة ، ولا اغترت . فالقصة التى طالعناها تتحدث عن نحلة متمردة لم يعجبها وضع لم تفهمه وليست مغرورة .

إن الغرور ينشأ عندما ينجح الإنسان فى عمل ، ويظ أنه قد فعل ما لم يفعله من سبقه ، وما لا يستطيعه معاصروه ، أو من يأتي بعده ، فتغتر نفسه ، ويظـــن أنـــه قادر علي أي فعل ، ويتعالي على من حوله ، ويتيه عجبا . وقد ينشأ الغرور مـــن ظن الإنسان بنفسه ما ليس بها من قدرات ، نتيجة نفاق من آخريـــن ، أو أفكـــار خاطئة . وشئ من هذا لم نره فى نحلتنا .

وأخذ الكاتب طوال القصة ، ينعت نحلته بـــ " المغرورة " ، ولكن هذا لا يقنـع المتلقى . فالنحلة لم تفعل شيئا طوال القصة ، يجعلها تنفـــخ الأوداج وتتيـــه علـــي زميلاتها ، إن كل ما فعلته هو تحريض زميلاتها لرفض وضعـــهم ، فـــأين الغـــرور هنا..؟!

وقد ثقل الحوار أحياناً ، بمعلومات ، لا تفيد ، فى تعميق موقف تحريضى ينشـده الكاتب ، استمع إليه :

" سمعت الآدمي – والله يا أخيَّتى – يقول لابنه ، هذا المفعـــوص : إن حـــلاوة السكر الموجود فى شهدنا أضعاف حلاوة السكر الذى يســـتخرج مـــن عيـــدان القصب أو ثمار البنجر ، وإنه غـــني بخـــيرات الله مـــن فيتامينـــات ، ومعـــادن ، وبروتينات، وهرومونات ، وأملاح وخماير وأحماض مهمة جـــداً لحيـــاة الإنســـان وحيويته " ص١٤ .

هل يفيد ذكر فوائد العسل فى تحريض النحلة المغرورة " لزميلتها . وبمـا أرادت أن تشعرها بأهمية العسل ، الذى يأخذه النحال ، أما كانت تكفى جملة أو اثنتـين .. بدلاً من هذا الاستطراد ، الذى لا يناسب طبيعة الحوار ، ثم .. من قال أن عســـل النحل به بروتينات .. ؟!

وكان الأحرى ، بدلاً من تضمين القصة بالمعلومات ، تعميقها . فالقصة تحدثـت عن الإنسان الذى يحرس الخلايا ويمدها بالسكر والغذاء ، ويبعد عنها الحشـــرات ، وفى المقابل يحصل علي العسل .وماذا لو كانت القصة : النحل ينتج العسل وفيـــه فوائد جمه لها ولغيرها . فأي سعادة كانت ستحس بها النحل ، لو تركت الإنســـان يفيد من نتاجها ، بعد إشباع حاجتها ، أى ترى أنفسها ، مفيدة لغيرها ، بصـــرف

النظر عن وجود خدمة فى المقابل من عدمها .

ولقد تضمنت القصة كلمات غير مناسبة :

" يا أخيّتى " بشدة وفتحة علي الياء .. ص ١٢ وهي غير مناسبة حتى للكبـــار .. ماذا لو قال يا أختى .. ؟!

" من قال لك قال عليك " ص ٢٤ هذا أسلوب يناسب الكبار .

" يوم الحشر " ص ٢٦ .. هل يصح ذكر ذلك فى قصة للناشئة ؟!

هذا وقصتنا من تأليف د. مرعي مدكور وتقع فى ٤٢ صفحـــة مـــن القطـــع الكبير، تتخللها عشر صفحات من رسوم جميلة للفنانة عزيزة أبـــو العـــلا ، وقـــد صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠١ .

لماذا كان الأشبال على أرض الأبطال

فى القصة الطويلة للسيد نجم والمعنونة بـ " الأشبال علي أرض الأبطال " ، ثلاثة أولاد ، حصلوا على شهادة الإعدادية لتوهم ، يودون زيارة سيناء يقف الآباء عقبة فى طريقهم .. ربما بسبب صغر سنهم ، وربما لجهلهم بالمكان الذى سيتوجهون إليه . يلجأ الأولاد إلى العم سلامة ، صاحب المكتبة المقعد ، بسبب اشتراكه فى حرب ١٩٧٣ . فيقول لهم :

" يجب يا أصدقاء أن تتعلموا كيف تدافعون عن أفكاركم قبل أن تناقشوها مع الآخرين " ص ٧ . فعاد الأولاد ، وأخذوا يقرؤون عن تاريخ سيناء وتضاريسها ومناخها وأهم المواقع والمزارات السياحية . بعدها استطاع العم سلامة أن يقنع الأهل أن يطمئنوا لقيام أولادهم بالرحلة ، فقد عرفوا ما هم مقدمون عليه .

يستقل الأولاد عارف وأسامه وهاني الباص ، للذهاب إلي العريش . ويلحظون عربة سواء تتبعهم .. وفى العريش يرون مستقليها .. يرتدون ملابس متشابهة ونظارات سوداء وقبعات غريبة . وتقع حوادث مريبة .. انفجر إطار الباص .. وأحد الركاب سلم لفافة لأحد هؤلاء الرجال .. ثم فى الليل يرى أحد الأولاد الرجال الغامضين يهبطون من قارب فى البحر ويحملون إطارات من الكاوتشوك . عندئذ يقرر الأولاد أن يذهبوا إلي منطقة أخرى فى سيناء . فذهبوا إلى منطقة سانت كاترين وشاهدوا معالمها . لكن السيارة السوداء تظهر فى المكان .. ورأوا سيارة شرطة تتبعها أدلوا بأقوالهم لضابط الشرطة عما عرفوه عنهم . فيتم إلقاء القبض عليهم ويعود الأولاد سالمين ، ويلتقون العم سلامة ، الذى يقص عليهم ذكرياته عن حرب ١٩٧٣ ضد الإسرائيليين لإجلائهم عن سيناء .

وأبدأ بالسؤال الذى عنونت به ، لماذا كانوا على أرض الأبطال . من الواضح أن هذه المطاردة ، إذا اعتبرناها ، كذلك ، كان من الممكن أن تحدث فى أي مكان آخر . فلم نجد فى القصة التى استعرضناها أي خاصية تجعل من الضرورى أن تقع

أحداثها فوق أرض سيناء بالذات . لقد لجأ المؤلف إلي سيناء ، ليتخذها حيلة ، ليقص على الأولاد والبنات بعضاً من المعلومات عن سيناء . ولأن هذا هو مشروعه المضمر في القصة ، فلم يهتم بالمطاردة كثيرا . فنحن لانعلم ماهية هؤلاء الرجال في العربة السوداء .. وحتى عندما هبطوا من القارب يحملون إطارات الكاوتشوك ، لم نعلم ماذا بداخلها ، هل هي مواد مخدرة ، هل هي نقود ، هل هى وثائق . واكتفت القصة بوصف حامليها " بالأشرار " .

ولأنها ليست قصة مطاردة الشر ، فكل ما فعله الأولاد هو الهرب من مواجهته . بعد أن شاهد أحد الأولاد ما حدث في القارب أسرع إلي زميليه " علق عارف : سوف نرحل حالا إلي منطقة أخرى في سيناء ، ونستخدم الطريق الحربي القديم " ص٢٠ . ويرجح فكرة الهرب أن زيارة منطقة سانت كاترين ، لم تكن في برنامجهم لزيارة سيناء ، فقد كانوا يجهلون معالمها ، وهم الذين بحثوا وقرؤوا وأعدوا البرنامج . " وبعد عدة أيام أخبرهم الشيخ بنهاية رحلته معهم . فسألوه عما يمكن زيارته في تلك المنطقة الجديدة التي وصلوا إليها .. فقال بحماس شديد : هنا جبل الطور .. وجبل موسى الذى تحدث فوقه النبى موسى وكلم ربه .. وكان كليم الله " ص ٢٧ .

ويتذكر المؤلف ، أن على الأولاد أن يفعلوا شيئا ، بعد ماشاهدوه : " يبدو أنه قدرنا يا جماعة .. بعد ماشاهدناه عند شاطئ العريش ، يجب أن نتحرك ونفعل أى شئ من أجل القبض على هؤلاء الأشرار " ص ٢٩ .

لكن صحوة الأولاد تأتي متأخرة ، وهم الذين لم يبادروا إلي العمل عندما محوا السيارة السوداء تتبعهم. فقط تجاوبوا مع ضابط الشرطة حين سألهم " وجدوا سيارة الشرطة تسرع خلف الأشرار ، وهو ما تأكدوا منه عندما سألهم الضابط عن السيارة السوداء .. بسرعة أخبروه عن كل شئ عرفوه عن هؤلاء الأشرار " ص ٢٩ .

وبعد ذلك : " فسألهم المقدم عن وجهتهم .. أخبروه ، فأمر بأن توصلهم واحدة من سيارات الشرطة تكريماً لهم علي شجاعتهم وإخلاصهم " ص ٣١ .

أين هذه الشجاعة .. هل الإدلاء بالأقوال للشرطة وفى حمايتها شجاعة .. ؟! وهل الهرب ، وعدم معرفة هوية " الأشرار " وما يفعلونه إخلاص ؟!

ولقد أوجد المؤلف المبرر لذكر المعلومات ، فلم نحس بتعمدها . فمن المناسب أن يقرأ الأولاد عن المكان الذى سيذهبون إليه . لكن الإشكالية ، أننا لا نقص لنخبر بالمعلومات ، سواء أوجدنا المبرر لذلك أم لا ، ولكننا نقص ليشعر القارئ بالمتعة . وكانت في يد كاتبنا قصة مطاردة جيدة ، قصها بأسلوب شيق . لكن الشوق لم يصل

إلي منتهاه ، بسبب عين الكاتب المهتمة بالمعلومة ، وليس بالمتعة . ولا بأس بالمعلومة إذا كانت فى خدمة الحدث أو الشخصية ، لكن المعلومة هنا جاءت منبتة الصلة بقصة المطاردة ، فإذا حذفناها لن تتأثر المطاردة فى شئ .

وتقع قصتنا فى ٣٢ صفحة من القطع المتوسط ، شغلت رسوم الفنان محمود الهندى حوالي ثماني صفحات ، مستوحاة من حوادث القصة فى أغلبها ، وعبرت بعض الرسوم عن المعلومات مثل رسم للنبى موسى طفلا فى مركب صغير ، ورسم لدبابة . وكرر رسم فتاة عدة مرات لا أدري لماذا ، والقصة خالية من أي فتاة ، وكذا معلوماتها .

وقد غلبت الخطوط العريضة علي الرسوم ، فى محاولة للتجسيد ، لإشعارنا بالمكان الذى يموج بطيات الرمال ، وبجسوم الجريمة فى نفوس الأبطال . لكن حد من ذلك غلبة اللونين الأزرق والأخضر ، فإذا سلمنا أن الأزرق مستوحى من البحر والمياه ، التى تحيط بشبه جزيرة سيناء ، فإن الأخضر ليس الطابع المميز لبحر من الرمال الصفراء ، طبيعة سيناء الغالبة .

ولم يكن الهندي موفقا فى استخدام اللون الأحمر لعربة وصفتها القصة أنها سوداء وجعلها تسير علي رمال غلب عليها اللون الأزرق ، فكأنها تسير فى البحر .

ولم يكن رسم الغلاف الذى غلب عليه اللونان الأخضر والأزرق ، دافعا لتخيل مكان الأحداث ، أو مثريا للخيال ، وقد بانت عليه عربة الباص حمراء .. فجاء الأحمر كأنه حلية ، وبان اللون الأصفر تائها وسط الأخضر والأزرق .

وقد صدرت هذه القصة الطويلة عن كتاب " قطر الندي " العدد ٦٤ - أكتوبر ٢٠٠٢ .

الأمنيات الوبيلة فى (أحـــلام النهار)

فى المدرسة الثانوية ، قرأنا فى كتاب المطالعة ، أسطورة تتحدث عن فـــتى يحـب الذهب ، حتى تمنى أن يصبح كل ما يلمسه ذهباً . وتتحقق أمنيته . ذهب إلي الحديقـة فتحولت زهورها وأشجارها إلي ذهب وهاج بحره . وعندمـــا أراد أن يـــأكل تفاحـة تحولت فى يده إلي ذهب . وكلما مد يده إلي شئ تحول إلى ذهب .

فليس بالذهب وحده يحيى الإنسان ، والشئ إذا زاد عن حده انقلب إلي نقيضه .

وفى رواية " أحلام النهار " لمحمد عبد الحافظ ناصف ، " تيمة " قريبة من هـــذا . وقد لا يكون المؤلف قد قرأ هذه الأسطورة ، فزمننا غير زمنه ، وإذا كان قد قرأهـــا ، وأفاد منها ، فلا ضير فى ذلك . فنحن أمام رواية تـــدور فى بيئـــة ريفيـــة مصريـــة ، وشخصياتها من رسم المؤلف ، وما تشى به من دلالة ، نابع بشكل طبيعي من ســـرد حوادثها .

نحن أمام ثلاثة أحلام . الجدة " اعتماد " شخصية محورية فيها . وكل حلم ينفـــرد ببطل . محمود وعلي وأحمد علي التوالى . كما توجد الطفلة هالة . وليس معنى انفـــراد بطل بالحلم نفى وجود آخرين .

الجدة تعيش وحيدة . تزرع عدة قراريط مـــن الأرض بـــالخضروات . والأولاد بشقاوتهم المعهودة يعاكسونها . يأكلون الخضروات ، ويتلفون الزرع . ومن أشـــهرهم الأولاد الثلاث . الجدة تعاملهم بحنان ، لكن عندما ينفد صبرها ، تدعو علـــى كـــل منهم بدعوة ، تجعله فى النهاية يعود إليها معتذراً وقد فهم خطأه .

وقبل أن نسترسل فى الأحلام ، نتعرف علي الجدة :

" كانت تخرج لهم سمحة الوجه منكفئة علي عكازها الطويل ، مرتديـــة جلبابهـــا الأبيض منذ استشهاد ابنها الوحيد فى حرب يونيه الحزين ، فقد ظلت تبكـــى حـــق انتصر الجيش المصرى فى حرب أكتوبر علي إسرائيل" ص٤ .

لم نجد علاقة لحرب يونيو بقصة امرأة وحيدة ، تتعرض لشـــقاوة بعـــض الأولاد . أضف إلي ذلك المبالغة فى الوصف . هل من المعقول أن العجوز ظلت تبكـــى ســـت

سنوات من عام ٦٧ إلي عام ١٩٧٣ ، حتى انتصرت مصر . الأوفق أنها حزينة لفقد ولدها ، وجاءت حرب أكتوبر فخففت من حزنها ، أو أنها ، كانت بين حين وآخر تتذكر ابنها ، فتزوى ابتسامتها .

وتقول الجدة للأولاد عندما يتمادون فى أخذ الثمار :

" عندما تريدون أن تأكلوا لكم الحق فى الأكل " ص ٨ .

المفروض أن تنهرهم .

ونأتى إلي الحلم الأول ، دعت الجدة علي محمود النهم ، الذى تمني أن يأكل كثيراً دائماً : " يا رب تأكل ما تشبع " تضخمت بطنه من كثرة الأكل ، وقلقت عائلته ، وحار الأطباء فى علاجه ، وعندما ذهب محمود إ لي الجدة واعتذر عن خطئه ، لأنه كان يأكل من خضراوات أرضها بنهم ، عفت عنه وعاد إلي طبيعته ، وقالت الجدة :

" سامحتك يا محمود .. ولكن لا تنس ذكر الله عند بداية الطعام " ص ١٤ .

لماذا تزيدت الجدة ، ومشكل محمود هو الأكل الكثير ، وليس عدم التسمية عند الأكل . إنه الحس الأخلاقى يتسرب ، كأنما رغما عن المؤلف فى عمله .

وفى الحلم الثانى أخذ علي النقود من الجدة ، وذهب إلي المدينة ، ليشترى لها الدواء ، ألهته المدينة ، اشترى حلوى ودخل السيرك ، ولما استغيبته الجدة ، اشترى لها بعضهم الدواء المطلوب ، وعندما عاد الولد : " كان علي يشعر بالسعادة رغم أنه لم يحضر الدواء " ص ٢٤ .

قد يكون الولد منتشياً من مشاهدة ألعاب السيرك ، لكن حين يعود للقرية ، ألن يشعر بخوف ولو بسيط أو إحساس بالذنب لعدم إحضاره الدواء ، خشية أن يكون قد جرى شئ للجدة .

تمنى علي : " ما أحسن أن يتوه الإنسان ويضل طريقه فى المدينة الجميلة وأن يذهب فلا يرجع هنا ثانية " ص ٢٥ .

تمنى ذلك ، وقد نسى ما حدث له : " اقترب منه طفل وخطف منه الكيس وجرى ، اقترب آخر وضربه علي رأسه وخطف منه الطاقية " ص ٢٣ .

وعبر عما حدث له قائلا : " فالشقاوة فى المدينة غير الشقاوة فى القرية ، الشقاوة هنا مرتبطة بالسرقة والخطف والضرب ، أحس أنه فى المدينة معرض لكل شئ " ص٢٣ .

فكيف بعد ذلك ، يتمني أن يضل طريقه فى " المدينة الجميلة " .. ؟! أضف إلي ذلك أن التفكير الذى يقارن بين الشقاوة فى المدينة والشقاوة فى القرية ، بهذه الصيغة أعلي من مستوى تفكير صبى .. قد لا يتعدى الرابعة عشرة من عمره .

التقطت الجدة أمنيته ودعت عليه : " تروح ما ترجع " . ينادونه فى البيت ليتناول

الطعام ، فيضل الطريق إلي حجرتهم . يود الذهاب إلي دورة المياه ، فيتخبط بين الحجرات .

منطقى طبقا للدعوة أن يذهب إلي حجرة تناول الطعام ولا يستطيع مغادرتها ، وما قد يحدثه ذلك من اضطراب . وأن يدخل إلى دورة المياه فلا يستطيع الخروج منها ، وما يسببه ذلك من ضيق ، له ، لوجوده فى مكان غير مستحب المكوث فيه طويلا ، ولغيره ، من يود استخدام دورة المياه . مرة واحدة تحققت الدعوة طبقا لمنطقها عندما ذهب إلي الحقل ولم يستطع العودة . بعدها ذهبوا به إلي الجدة سامحته وعاد إلي طبيعته بعد أن عرف خطأه .

ويعلق الراوي علي الحلمين :

" ظلت القرية كلها تتحدث أياماً طوالاً عن حكاية محمود وعلي ، وظل ذلك حكمة لكثير من الأطفال فى القرية ، وعبرة يتعظ بها كل من تسول نفسه أن يرتكب خطأ ما . " ص ٢٩ .

كلمتا " حكمة " و " عبرة " ثقيلتان فى القص ، وإذا استثنينا بداية المقطع ، حديث القرية عن حكاية محمود وعلي ، فإن باقى المقطع لا يضيف جديداً لما حدث .

فى الحلم الثالث ، تملأ الجدة ، أو الطفلة هالة ، القلل ، وتضعها أمام الدار ، ويأتي أحمد ، وكنا فى هجير يوليو ، ويسقى شجرة الجميز التى يحبها بماء القلل . وعندما تعطش الجدة ، لا تجد ماء ، ولا يسرع أحمد ليسقيها فقد : " وضع إصبعيه فى أذنيه ، كي لا يسمع وظل يتحرك فى قلق ، لم يكن بجوار الشجرة غيره " ص ٣١.

تلح الجدة فى الطلب ، يقول أحمد : " لا أود أن أسمع أصوات الصراخ الدائم والضوضاء التى يحدثها هؤلاء الكبار أمثالكم " ص ٣٢ .

لا أظن الصغير تزعجه أي ضوضاء ، هذا إذا عددنا صوت عجوز ضوضاء ، خاصة وهو يحدث الكثير منها .

ونطق الولد كلمة " الضوضاء " غير وارد ، لأنها لم تدخل فى قاموس تعبيره بعد .

وتستجيب الجدة لأمنيته ، أنه لا يريد أن يسمع شيئا ، فتدعو عليه : " إلهي ينادوا عليك ما تسمع " . بعدها " شعر فجأة كأن صفارات إنذار ترن بعنف فى أذنيه وأصوات ماكينات تدق باستمرار وعنف فى صوت رتيب كأصوات ماكينات النسيج" ص ٣٢ وما بعدها .

و" أحس بإعياء شديد ، لم تقو أذناه علي حفظ توازنه واختلت قدماه فاستند علي شجرة ، فصرخ بشدة ، ولم يسمع صوته ، صرخ مرة ثانية ، ثالثة ، التم حوله الفلاحون من كل اتجاه " ص ٣٥ .

و :

" أمسك أذنيه، أحس بحنجرته مجروحة من كثرة الصراخ " ص ٣٥ .
ما صلة كل هذه الأعراض بالدعاء ، أن ينادي عليه أحد فلا يسمع .. ؟!
والمفروض ، أن الذى بُح حنجرته ، والذى يصرخ ، من ينادي عليه ، فيكرر النداء حتى يبح صوته لأنه لا يسمعه . وحبذا لو تم الصراخ عليه وهو فى مأزق ، كأن يكون علي وشك السقوط فى بئر ساقية سهوا ، أو يكون علي الطريق شاردا ، وخلفه عربة تكاد تدوسه ، فلا يسمع صوت من يحذره ، وينقذونه فى آخر لحظة . عندئذ كان سيتولد موقف فكه ، يحبه الأولاد من جهة ، ومن جهة أخرى يدرك صبينا ما آلت إليه الأمور ، بسبب أمنيته . ذهبوا به إلي الجدة ، وقد أدركوا أن شفاءه عندها . ترفقت به ، وعملت له ليموناده و : " أحس بالراحة ، سمع صوته مبحوحاً " ص ٣٦ ، واسترد عافيته وقد ندم علي عدم رى عطش الجدة .
وإذا كنا قد عايشنا الأولاد فى شقاوتهم ، وفى تحقيق أمنياتهم التى جلبت الوبال عليهم ، لأنها أمنيات غير طيبة . وأحسسنا بمعاناة محمود حتى عفت عنه الجدة ، وأحسسنا لحد ما بمعاناة الولدين علي وأحمد . إلا أننا لم نعايش هالة ، الشخصية الخامسة فى الرواية ، بعد الجدة والأولاد . جاءت كوجه خير فى مقابل أولاد غير أسوياء . وجاءت كنسمة ، وفى سطور معدودة طوال الرواية ، لا تقيم توازنا يحس به المتلقى فى مقابل السوء . فلقد رأيناها تخبط علي باب الجدة ، عندما عبث الأولاد بزرعها ، ورأيناها وهي تملأ القلل ، وتزور الجدة بين آن وآخر ، دون أن نعرف شيئا عن هويتها وأسرتها ، ودون أن تتخذ أى موقف من الأولاد .
وعودة إلي الأحلام الثلاثة ، نجدها تقع فى وضح النهار ، فهى ليست أحلام منام ، فهل نحن أمام أحلام يقظة .. ؟! .. ولا هذه .
أرى أننا أمام حلم ، أن يتحقق فى حياتنا ، ما نأمله من إصلاح لحال أولادنا ، عندما يخطئون ، أو أن نراهم علي هذا النحو الذى نريدهم أن يصلوا إليه كما فى الرواية .
وحفلت الرواية بثلاثة رسوم للفنان أحمد الجنايني ، أبيض وأسود ، خطوط مرهفة، عبرت عن طيبة الجدة وعن شقاوة الأولاد ، فى تشكيل يغري بالتأمل ، وبالتذوق ، والاقتراب بحميمية من شخصيات الرواية . وقد صدر هذا العمل في ٣٦ صفحة من القطع المتوسط عن " كتاب رؤي للطفل " بمدينة المحلة الكبرى عام ٢٠٠١ .

فى الحكاية والقصة القصيرة

فؤاد حداد .. كاتب أطفال

عُرف فؤاد حداد كمبدع عظيم فى شعر العامية المصرية ، وترجم عن الفرنسية ، ولم يُعرف عنه أنه كاتب أطفال.

لقد صدر له فى " كتاب الهلال للأولاد والبنات " كتاب بعنوان " من وحي ألف ليلة وليلة " حكايات من ألف ليلة وحكايات شعبية ، وذلك فى العدد ٥١ . أغسطس ١٩٨٧ . ولقد فاجأتنا مجلة " علاء الدين " للأطفال بنشر خمس حكايات له فى عام ٢٠٠٢ .

وهذه الحكايات ، يطلق عليها الشاعر فى ثنايا القص ، أحيانا ، قصصا .

ويذكر فى مقدمة حكاية " القرد والتمساح " أن الراوي كان فى السنغال ، وقصها عليه قصاص أفريقى . وتبدأ حكاية " الأرنب والفيل " بـ " سمعت هذه الحكاية من قاص زنجي فى جزر الأنتيل بالمحيط الأطلنطى ، ويقول عن حكاية " النملة الرشيقة " أنها من رياض الأندلس .

وسواء ، ذكر ذلك ، ليوحي إلى المتلقى أن هذه الحكايات مستوحاة من القصص الشعبى للشعوب المختلفة ، أو ليشد انتباه القارئ لما سيسرد عليه ، فإن ما يعنينا ، هو كيف جاء تشكيل هذه الحكايات من قلم الشاعر :

لقد انسابت الحكايات فى فصحي سهلة ، تحمل ايقاع العامية المصرية ، القريب من الوجدان الشعبى ، وتحمل بعض جمالياتها ، كالجناس ، والتكرار ، والروح الفكهة ، وابتكار كنية للأسماء ، تبعث على التحبب ، وتزيد من الألفة ، الأمر الذى سوف نلحظه فى الفقرات التى نستشهد بها .

فى حكاية " ألحان الكمنجة " العدد ٤٦٠ فى ٢ مايو ٢٠٠٢ يقول الشاعر :

" قطط عفاريت ملاح الوجوه والأذيال وألوان الفراء ، ولأسمائهم رنين حلو يشنف الآذان ويزينها مثل الحلقان فالأول وكان أسود فاحما مثل ليالى الوديان والضفائر والعيون الناعسة الكحيلة التى تغنى بها شعراء الغزل فى أزهى العصور ، يدعي (بحبح أبو المواسم) والثاني أشقر أحمر كأنما جاء لونه من عجينة مزجت فيها

الشمس والبرتقال والورد والرمل الهندي الذى تغرس به الحدائق فى أيام الأعياد ، اسمه (مشمش فج النور) والثالث كان أخضر حلوا وسيما طيباً قطقوطا تناديه أمه باسم (ربيع ياندي) .

عندما كبر الأولاد طلبت من كبيرهم أن يخرج للبحث عن رزقه ، وألا ينسى أمه الذى نال المرض منها ، وألا ينسى أخويه .

" حتى إذا كبر أولهم واشتد عوده قالت له : يا بحبح قد آن الأوان لكى تمضى فى الدنيا قدماً وتجرب حظك فإذا لقيت خيرا فلا تنسى أمك وأخويك " .

فذهب الولد ، وأصاب رزقا ونسى أمه وأخويه . وذهب الأخ الأوسط وفعل مثلما فعل أخوه . وعت الأم الدرس ، فلم ترسل الثالث دون أن يمتهن عملا . قالت للأخ الثالث : " يا ربيع خذ هذه الكمنجة واعزف بها فى الشارع لعلك تحصل علي بضعة دراهم " . واحتج الولد ، أنه لا يجيد العزف .

" قالت : أهذا الخشب وهذا الوتر سيتكلمان أم الفؤاد .

قال : الفؤاد

قالت : فهو الذى سيعلمك "

فليس الأمر أن تكون حرفيا فقط ، ولكن عليك أن تبذل من نفسك من أجل عملك فعلي ربيع ياندي أن يعزف ما يحس به فى داخله ، كي يؤثر فى الناس . وبالفعل ينجح ويبتكر الألحان ، ولا ينسى حداد أنه شاعر ، فينشد القط :

نونو نونو نونو نوا
لا أتلون لا أتلوى
لكن أعزف مثل الشوا
حالا توا
لحنا يرقص كل الدنيا
برا بحراً جبلا جوا
نونو نونو نونو نوا

وهكذا ، عن طريق العمل المبدع ينجح ربيع ، ويساعد أمه ويتزوج وينجب ذرية سعيدة ، بخلاف أخويه اللذين اعتمدا علي اتخاذ سيدين لهما ، يطعمانهما ، فصارا عبدين ، ولم يستطيعا مساعدة أحد .

و كلمة " الفؤاد " على لسان الأم ، غير واردة فى الحديث مع الأطفال ، ولكنها قد تحث المتلقى للسؤال ، وهذا مطلوب فى قصص الأطفال ، لدفع الطفل إلي التماس مزيد من المعرفة .

فى حكاية " القرد والتمساح " العدد ٤٦١ فى ٩ مايو ٢٠٠٢ ، يقع قرد اسمه

جولو فى الماء ، ويتشعلق بزورق رسا علي جزيرة صغيرة ، فانفلت القرد إليها ، وتسلق شجرة جوز هند ، بينما غادر الزورق الجزيرة ، وسرعان ما حضر أحد التماسيح وقال :

" جولو يا جولو يا قرد القرود يا بائس ويا نمرود ! ما الذى جاء بك إلي هنا ، أية جرأة وأى تطفل ؟! كيف طاوعتك نفسك علي أن تطأ بقدميك هذه الأرض التى هي سر أسرار التماسيح الرهيبة ؟! " .

يدفع القرد التمساح إلي التباهي ، فيزعم أن عدد القرود أكثر من عدد التماسيح، وأن أحد التماسيح لا يستطيع أن يمس شعرة منه . فيرد التمساح أن قومه أكثر من القرود عددا وأنهم لا يخافونهم . يطلب منه القرد أن يحضر قومه كي يحصيهم ، ليصدقه ، وإذا حدث ومات ، فسوف يكون مرتاح الضمير .

يستدعي التمساح قومه ، ويطلب منه القرد أن يصطفوا بجانب بعضهم بعضا فى الماء ، ليسهل له مهمته . وبالفعل تصطف التماسيح ويعبر فوق ظهورها القرد وهو يحصيها وعندما اقترب القرد من الشاطئ ، ينتبه التمساح العجوز أن القرد علي وشك الهرب ، فيزعق فى التماسيح لتمنعه من ذلك ، لكن الوقت قد فات ، فقد مدت القرود أيديها لالتقاط جولو .

فباستخدام الحيلة والذكاء ينجح القرد فى الإفلات من التمساح .

فى حكاية " الأرنب والفيل " العدد ٤٦٢ فى ١٦ مايو ٢٠٠٢ ، يتصارع ديكان مملوكان لأرنب وفيل . أثناء المصارعة يكتشف الفيل ، من صياح ديك الأرنب ، أنه دجاجة ، فيغضب ويكاد يسحق الأرنب . واتفق المشاهدون علي مباراة فى الصفعات بينهما . يحمل أحدهما قهوة الصباح فى موعد الإفطار ، ويصفع الآخر علي وجهه ، وفى اليوم التالي يقوم الآخر بنفس الفعل . وفاز الأرنب فى القرعة بصفعة البداية . وطبعا لم يتأثر الفيل بصفعته . وانصرف الأرنب مهموما . ماذا سيفعل فى الغد ليتقي صفعة الفيل . يلتقي خروفا فيعزمه ويكرم وفادته . أيقظه فى الصباح ليفتح الباب للفيل وهو يغطي رأسه بقلنسوه ، فصفعه الفيل دن إن يلتفت إلي حقيقته . لكن ماذا سيفعل الأرنب بعد ذلك ، هناك دور ثان ؟! احتال علي قرد ، ليعلب نفس دور الخروف ، لكن اللعين ، لا يفتح الباب ويهرب ، ويمسك الفيل الأرنب من رجله ، فيلجأ إلي الحيلة مرة أخرى .

" أيها الفيل لن تنجو أبدا من التغفيل ، إنك لا تمسك برجلي ولكنها رجل السرير، اتركها .. وبالفعل ترك الفيل الأحمق قدم الأرنب الذى سارع بالفرار " .

لم يكن مستحبا وصف الفيل بـ " الأحمق " ، ففعله دال عليه ، ولم يكن مستحبا إنهاء الحكاية بـ : " وسخر الناس من الفيل الذى أراد أن ينجو من التغفيل والذى

غادر بعد ذلك جزر الأنتيل ولم يعد إليها أبدا " فقد انتهت الحكاية عنـــد " ســارع بالفرار " ولو توقفت الحكاية بعد " بالفرار " لأتاحت الفرصة لانطلاق الخيـال .. إلي أين فر الأرنب ..وماذا فعل الفيل بعدها .. وما هو رد فعل الحيوانات ..

أما التعليق الذى حدث بعد " سارع بالفرار " فقد حدد مـا حـدث ، وأوقـف انطلاق التفكير ..

ومع أن هذه الحكاية ترينا ، ما يستطيعه الذكاء ، الذى جعل الأرنب الضعيـــف يفلت من الفيل القوى ، كما حدث فى الحكاية السابقة بين القرد والتمســاح ، إلا أن الضعيف هنا غشاش ، فقد غش الأرنب الفيل وأحضر دجاجة بدلا من ديـــك ، ولا يصح أن ينتصر الغشاش مهما كان ضعيفا ، وإلا كأننا ندعو كل غشاش أن يستخدم ذكاءه ، لينجو من أي عاقبة .

وفى حكاية " النملة الرشيقة " العدد ٤٦٣ فى ٢٣ مايو ٢٠٠٢ ، نملة تعطــرت وتزينت ، جاءها الخُطاب ، كلٌ يريها ما يستطيعه لترضى به زوجا . الثــور أفزعــها بحركاته العنيفه ، وصوته المنكر فرفضته ، والخنزير دمدمت الريــح مــن منخاريــه ، فكان مصيره مثل سابقه ، وآخرون لم ينالوا رضاها .

" حتى جاءها جندب أسمر خجول ، ولكن قلبه يقفز وهو يغني ويقول :

– يا نور عيني هل نصبح زوجين ؟! .. ثم يسكت فجأة فقد اعتصر كيانه كلـه فى هذه الكلمات القليلة . وأنصت ينتظر الجواب علي أحر من الجمر . ولم تسعه الدنيــا عندما سمعها تقول :

– وأنت كذلك نور عيني وسوف نصبح زوجين ! " .

لكن الزواج لم يستمر . خرجت النملة من البيت ، وطلبت من الجندب ألا يقلـب الحساء إلا بالملعقة الكبيرة ، فسها وقلب بالملعقة الصغيرة ، واضطـر لكـي يقلـب الحساء، أن ينحني علي القدر فسقط فيه ومات .

حزنت النملة حزنا عظيماً ، وشاركتها بقية الحيوانات حزنها . وقص الشاعر ذلك بطريقة التكرار التى تتميز بها الحكاية الشعبية . لنستمع :

" إن الجندب قد سقط فى المرق فاحترق واختنق ومات بالغرق . فبكتــه النملــة واستحلت البكاء والأرق فقطع العصفور المسمى أبو كافور ذيله كله . لم يبــق منــه شئ. فتخلصت شجرة الورد من أزهارها كلها زهرة زهرة ، فنزعت أنا القطة فرائــي الجميل شعرة شعرة " .

هذا المقطع تكون من أفعال الآخرين تعبيراً عن حزنهم . كلٌ يذكر ما فعلــه مــن سبقه ، ويضيف ما فعله هو تعبيراً عن حزنه .

وتنتهي الحكاية بـــ :

" ورأى الراوي ابنة العمدة وهي تكسر الجرة فبكى وقال : كذب من زعم أن هذه القصة تضحك من أولها إلي آخرها ، فإن فيها لدموعا غزيرة كثيرة ، منها دموعى ودموع الفلاحة والينبوع والقطة وشجرة الورد والعصفور المسمي أبو كافور والنملة الصغيرة ولا ينقصها إلا دموع الجندب .. ولكن ماذا أقول ؟ لو كان الجندب يبكى معنا لما بكينا ولما حكينا ولا عرفنا متى وأين تتشابه الدموع والضحكات " .

وهو يرد علي ما جاء في مقدمة الحكاية :

" قصتنا من رياض الأندلس ، تضحك من أولها إلي آخرها ، ولا تسأم الضحك ولا تمله ، بل ربما ضحكت وأنت تذرف الدمع . لماذا .. لا أدري .. يقول المثل : أن الضحك بلا سبب قلة أدب . ولكن قصتنا لا تكاد تأبه بشئ من ذلك .. كانت الآنسة نملة تكنس الأرض أمام بيتها عندما عثرت علي قرش بأكمله يلمع في الشمس أشد اللمعان " .

أرى أن المقدمة والنهاية لا لزوم لهما . فالحكاية تتحدث عن اختيار زوج ترتاح له النفس ، أضاع نفسه ، وأتعس حبيبته ، لأنه لم يصغ لنصيحتها . كما تتحدث عن مواساة الجميع للنملة ، ووقوفهم إلي جانبها ، حتى تجتاز محنتها .

ولو بدأت الحكاية بـ " كانت الآنسة نملة تكنس الأرض " لدخل المتلقى في صلب الحكاية ، ولما تشتت ذهنه في معنى الضحك والبكاء ، والذى ورد في النهاية أيضا .

وفي حكاية " قوس القزح " العدد ٤٦٤ في ٣٠ مايو ٢٠٠٢ ، يستهل الشاعر حكايته بمقدمة طويلة ، يتساءل فيها .. هل قصته بنت القرن العشرين .. أم هى موغلة في القدم . وتبدأ الحكاية عند " أيا كان الأمر فإن القصة تحدثنا عن شجرة سحرية في محلة قوس القزح تدعي : شجرة الأمنيات . همس في أذن من يقف إلي جوارها أو يجلس في ظلها كي يفصح عن أمنيته فتحققها له .

وفي الشارع ، الذى تزين الشجرة مدخله الجنوبي " كان يعيش رجل بدين ، ولكنه عصبى المزاج مثل النحفاء ، وله شارب ترابي وأنف معقوف وياقة متسخة وإن كان ويا للعجب ، يصنع الصابون ويبيعه " .

وكان الأولاد وهم يلعبون يثيرون ضجة ، تضايق هذا الرجل المسمى سنفروت الأفشع وربما رددوا الإعلان الذى يذيعه التليفزيون عن صابونه :

" صابون الأفشع هو المضمون هو الأنصع ، غسيله في الهواء شعشع شعشع شعشع " وذهب سنفروت إلي موقع الشجرة وقال " أتمني وأريد أن يختفى كل أطفال الشارع ، وأن يذهبوا جميعا إلي القمر ليقيموا هناك فأستريح منهم " .

وذهب الأولاد إلي القمر .. ولما وجدوه بارداً موحشا، انخرطوا فى البكاء ، ورأت ما حدث العصافير ، فكفت عن الغناء ، وذهب العصفور الأسمر إلي شجرة الأمنيات وقال " أريد أن يعود إلينا كل الأطفال مرة ثانية ، أريد ، أريد : وقال سنفروت الأبشع الأفشع : أريد أن يمكث الأطفال كل الأطفال فى القمر هناك ، أريد ، أريد ".
وظلا فى هذه المباراة ، والأطفال طبعا لا يتحركون من مكانهم إلي أن " وضرب السيد سنفروت الأرض بقدمه وقال : أريد . ولكنه توقف فجأة فاغراً فاه فى الهواء ولم يكمل جملته .. ذلك أن العصفور الأسمر قد انتفض وقال بسرعة البرق الخاطف : أريد أن يكون السيد السنفروت رجلا طيبا " بعدها يتغير السنفروت ويطلب بنفسه عودة الأولاد .

وبالفعل يعود الأطفال ويسعد الجميع ، وغير السنفروت اسمه إلي سعد الطيب رضوان .

وهذه الحكاية تقدم لنا نموذجاً جديداً للشرير ، غير ما تعودناه فى أدب الأطفال . كاللص والقاتل والمنافق والكذاب وهكذا .. إن الشر هنا تمثل فى ملمحين : عدم نظافة ياقة سنفروت ، ولنستمع إليه بعدما تغير : " قاطعهم الذى كان يدعى السنفروت وقال : لم يعد هذا اسمي ، فقد اخترت اسماً آخر مليحاً يليق بالإنسان الجديد الذى يجلس معكم ألا ترون وجهي بشوشاً وياقتي نظيفة " .

والملمح الثاني للشر فى هذه الشخصية ، هو عدم وجود الحنان . فلو كان عنده حنان ما غضب من صخب الأولاد . هذا شئ طبيعي ينم عن شقاوتهم ومرحهم ، ولا يستوجب عقاباً ، ينفيهم إلي مكان بعيد . وعندما طلب العصفور أن يصبح السنفروت رجلاً طيباً : " أحس بأن كيانه يتغير . وأول ما بدا له من هذا التغيير طمأنينة امتلكت نفسه وملأتها بعاطفة الحنان الصادق " وفى الحال طالب بعودة الأولاد " أريد أن يعود إلينا كل الأطفال لتمتلئ الدنيا بهم مرحا وبهجة " .

وبعدها : " وقال العصفور الذى اهتدى إلي نصرة الحق وكتب له التوفيق والنجاح : طاب الخير وأثمر " .

نعم .. طاب الخير وأثمر .

أما عن الرسوم التى قام بها الفنان إيهاب فقد غلب عليها اللونان الأحمر والبنفسجي أحياناً ، والأصفر والأخضر أحياناً أخرى . وجاءت خطوطه انسيابية ، تؤطر أجسام الحيوانات الذى بالغ الفنان فى أحجامها ، وأشعت نظراتها الإنسانية بالمكر والدهاء والاستغراق فى الاستماع وهكذا .. الأمر الذى أعطي انطباعاً بالمرح .. والرسوم فى جملتها تساعد علي تصور أبطال الحكاية .. وتدفع إلي الخيال خارج إطارها .. بما تحمله من إيماءات وأوضاع مختلفة .

حكايات سمير عبد الباقى الشعرية

تحت عنوان " فاطميا السمراء .. وبلبل فنان " صدر للشاعر سمير عبد الباقى كتاب يحتوى ثمانى حكايات شعرية .

فى حكاية " رحلة وراء الخيال " ، نام الراوى بعد أن سمع حكاية من أبيه عن فارس شجاع ، وانتابته الأحلام .

" أحسست أن العالم الكبير كله
يبام فى سريرى الصغير ..
وأننى على اتساع صدره أنام
أشبك فوق رأسه أزهار
فرحتى .. " ص ٨ .

ودخل الراوي بيت السندباد ، وعاش فى قصر شهر زاد ، وفرهارباً من قلعة التنين ، وسار فى الصحراء ، وبلغ الشواطئ الخضراء . ويستطرد الصبى الراوى . محدثا أصدقائه :

" وجدتنى أطير ..
على جناح بطة سمينة ثرثارة ..
كثيرة الكلام ..
لاتتقن الحديث مثل كل البط ..
لكن تكثر الطعام .. " ص ١٠ .

ويستمر الراوي :

" الخيل كانت تحرث الحقولا ..
العنز تنقل الرسائل المسجلة
وكانت الأرانب المبجلة
على موائد من الخشب
تأكل فى أدب
الخس والبقولا " ص ١٣ .

إلى أن :

" وجدتنى ..
على أبواب قريتى الأليفة الملامح ..

هناك صرت للأسود صاحباً
للنمور
والقرود
والحمير والمها مدرباً
لعبت نط الحبل
مثل جندب على الورق " ص ١٤ .
وقابل صبينا رجلا ، خُيل إليه ، أنه يعرفه من زمن بعيد .
" علمني الكتابة
وكيف أمسك العصا
والقوس
والحراب ..
وكيف أصنع الأبواب
من خشب
وكيف أحتمي من الرياح والذئاب
وكيف أزرع الشجر " ص ١٥ .
وينهي الراوى حديثه :
" عرفت ما عرفت ..
فعلت ما فعلت
لأنني أملك يا صحاب
هذى الكفوف
ذلك اللسان ..
لأنني الإنسان " ص ١٧ .

إن كفي الصبي ، هما كفا الفلاح الذى قابله علي أعتاب قريته . وهو يعرفه من ألف عام ، لأنه منحدر من صلبه ، ويحمل تراثه وتاريخه ، تاريخ أعرق حضارة فى الدنيا . هذا الفلاح علمه الكتابة . فالمصريون أول من اخترع الأبجدية ، والصبى يملك اللسان ، أى يملك الحديث كإنسان . ولا يمكن أن يكون إنساناً ، إلا إذا تمثل ثقافة البشرية . وكانت رحلته : .. إلي قصر شهر زاد .. والمسير فى الصحراء .. وركوبه الموج .. ومعاندة الرياح .. ومصاحبة الأسود .. وتدريب المها ، هي رحلة لامتلاك تاريخ حياة الإنسان .. الذى أخضع الطبيعة لسيطرته ، من جماد وحيوان ، وذلك دون أن ينفصل - أي الصبى - عن جذوره المصرية العريقة .

وبهذا يستمر فى مواصلة الرسالة .. صناعة الحضارة .. والتقدم .

وفى حكاية " أغنية للأرنب " :

" كان الأرنب يبحث عن أغنية للأرنب
لم يرغب أن ينشد أغنية العصفور
ولا أغنية القطة

أو أغنية العنكب
كان يحس بداخله لحنا يهواه
لا يشبه ألحان سواه " ص ١٨ .

الأرنب يبحث عن تحقيق ذاته ، وهو الذى سمع أغنيات الطيور والحيوانات الأخرى . العصفور والعنز والقط .. وعلمه الليل ترانيم الناى ، فاعتراه الحزن .

" سألته الأم الحانية :
– بنى .. ماذا يثقل قلبك ؟
ماذا يشغل بالك ؟
حتى صارت عيناك كمرآة
غيمها الدمع " ص ٢٠ .

ويكتشف والده سر حزنه ، فيحضر له قيثارة .. وتبدأ محاولة الأرنب فى البحث عن لحنه الخاص .. وليس سهلا الحصول عليه .. لابد من المعاناة .. يصاحب الغزلان وكثيرا من الطيور .. ويشارك الغربان .. يستمع إلى ألحانها .. ويحاول مجاراتها ، ويسابقها .. إلى أن جاء يوم :

" كان يحس بقوس القيثارة ..
ينبض فى قلبه
وأصابعه تبحث فى دأب عن نبع مشاعره
تبعثها فى الأوتار الحساسة ألحانا
أنغاما
إيقاعات ..
لم يعزفها من قبل ولم ينشدها طير
أو حيوان آخر .. " ص ٢١ ، ٢٢ .

ويهتدى الأرنب إلى أغنيته الخاصة :
" تحمل إيقاع ونبض حياة الأرنب ..
أشواق الأرنب
أحلام الأرنب ؟ ص ٢٤

وهذه الأغنية تحوى :
" بعضا من سقسقة الزرزور
وشقشقة الحجل وزقزقة العصفور
(نونوة القط) و (هوهوة الكلب)
وفيها بعض من نق الضفدع وحفيف الأشجار
آهات الناى
وإيقاع الدف وترتيل الأوتار " ص ٢٤ .

فالأرنب اهتدى إلى أغنيته الخاصة التى تحمل أشواقه وأحلامه ، عندما استوعب خبرات ، وحيوات ، وأغنيات الآخرين . امتزجت وائتلفت ، وانصهرت فى روحه .

وبعدها استطاع أن يبدع أغنيته ، ويضيف إلي أغنيات الآخرين .

وفى حكاية " حفل فى بيت القوقعة " .. دعت القوقعة أربعة من أصدقائها إلي حفل عشاء. الأرنب الجبلي والقنفد البرى والكلب والجحش. لبوا الدعوة . وحين دخلت القوقعة إلي بيتها ، قوقعتها ، علي مقاس جسمها ، ودعتهم للدخول ، وقفوا فى حيرة .. كيف يدخلون . وتساءلوا :

" هل حين قالت :
– مرحبا
كانت بهم مرحبة ؟
أم أنها سخرت بهم ..
وألقمتهم – (مقلبا) ؟! " ص ٣٠

لم تجب الحكاية علي هذا التساؤل ، ولكن بما أن :

" القوقعة ..
ذات النوايا الطيبة
خرجت لهم برأسها
– من بيتها مرحبة
قالت لهم :
– أهلاً بكم
تفضلوا ..
أنا طبخت عشاءكم " ص ٢٨ .

فلنا أن نستنتج ، مادامت نواياها طيبة .. وأعدت العشاء أن الدعوة كريمة للإئتناس بأصدقائها . وكل ما فى الأمر ، وهنا حبكة الحكاية ، فإنها لم تقدر، أن بيتها القوقعة لن يسع الضيوف ، وعلينا قبل أن نشرع فى أمر ، أن نتدبره ، وكما يقول المثل : قدر لرجلك قبل الخطو موضعا .

وفى حكاية " حيوان غريب " كانت الغابة ترفل فى سعادة واطمئنان :

" وبكل مكان تنبض بالحب الدنيا
ثمرا ..
أو شجراً . أو أزهار
الطائر يعلو ويطير ..
والزاحف يتراقص حين يسير
واللاهى يلهو
يعزف بالأوتار
والقافز يلعب بالجوز
وبالموز أو الأحجار " ص ٣١ ، ٣٢ .

حتى ظهر :

" حيوان كالليل :

الحالك جبار
ضخم ذو جلد منقوط ..
شرس ..
فاتك .. " ص ٣٢
فانقلب حال الغابة :
" صار غناء الطير صراخاً
والشدو نحيباً
وهديل الأشجار عويل ..
واختبأ السمك بقاع النيل " ص ٣٣
ومع أننا من وصف الحيوان الغريب ، ندرك أنه ثعبان ســـــام ، إلا أن المؤلـــف لم يسمه ، ربما ليكون رمزاً للشر المطلق .
وتناقشت الحيوانات بخصوص هذا الطارئ ، فاختلفت وعانت واتفقت :
" اتفقوا بعد عناء
– (ألا يفسد أي خلاف للود قضية) ص ٣٥
جاءت هذه العبارة مقحمة علي النص الرشيق ، ونقلت المتلقى خــــارج ســـياق التصوير ..
وبزغت الفكرة للعمل :
" طورها البعض
والبعض أضاف
والبعض تشكك فيها أو خاف
لكن الفكرة
صارت واضحة للكل
فقالوا نصنع فى التو كرات من مطاط
مطاط
ونحيط بها ذاك الوحش الشرير
بين الأغصان
وخلف جذوع الأشجار
وبين دروب الغابة نخفيها
فإذا ما أطلق أسهمه السامة
كي تقتلنا
صُدت
وارتدت نحوه " ص ٣٦ .
وشارك الجميع فى العمل :
" هذا يبنى
هذا يغزل

هذا يصنع
وجميعا ..
زرعوا شجر المطاط " ص ٣٧ .
وبالفعل ينجحون فى عمل كرات المطاط ، وينتصرون علي عدوهم .. وكان من شروط الانتصار ، ضرورة النقاش فيما سيفعلونه .. وأن يستقروا علي رأي واحد .. وأن يساهم الجميع فى العمل .
وفى حكاية " حماقة " ، انقض نسر علي خروف رضيع :
" ورآه غراب
أعجبه ..
أن يفعل مثل العقبان .. " ص ٤٠
وينصحه عصفور :
" – اخجل
ما أنت بنسر فلتعقل
العاقل يعرف قوته " ص ٤٠ .
لكنه لم يقبل النصيحة :
" وانقض يريد ضحيته ..
فاشتبك بصوف الخرفان " ص ٤٢
أمسكه الراعي :
" وتندر بحكى قصته ..
مثلاً عن حمق الغربان "
فمن لا يعرف قدر نفسه ، سيوقعها فى مآزق لا محالة .
وفى حكاية " بلبل فنان " ، البلبل لا هم له إلا مدح الأسد
" إن عاد من الصيد سعيدا
أنشده أحلى الألحان ..
السبع الأسد الجبار
قد صاد غزالاً وحمار " ص ٤٣ .
وإذا أغضب السبع حيواناً ، قال البلبل :
" لا تبتئس يا سبع
لا ..
لا تبتئس
فالعالم دون ضحكة السبع
كئيب وتعس "
بلغ النفاق بالبلبل ، أن جعل العالم لا قيمة له دون ضحكة السبع ، ويكافئه السبع فيقربه منه ، ويتصدر أهل ديوانه . وقبع فيه نهاره وليله :
" لا يتقافز فوق الأغصان ..

لا يسبق طيراً ..
لا يعشق نجماً
لا يمرح فوق الشطآن " ص ٤٧ .
ويصدأ البلبل ، فلم يعد يبدع الألحان .
ويضيق به السبع ويؤنبه . وينحدر به الحال ، حتى أصبحت الحملان تسخر منه .
فالمنافق الذى يوقف مواهبه لصالح شخص واحد ، حتى لو كان الملك ، يخسره ، ويخسره نفسه معا . ويفقد احترام المحيطين به .
وفى حكاية " السبع والتكنولوجيا " جمع السبع سكان الغابة وقال :
" _ نحن يا أصحاب
فى عصر التقدم نحن فى عصر الفنون
أتقن الناس
تفانين الجنون
أتقنوا علم الصناعة أطلقوا
سفن الفضاء
أتقنوا فن البناء
وأفانين الغناء
أصبحوا .. بالتكنولوجيا والعلوم
سادة الأرض ..
وحكام البحار " ص ٥٠ .
الناس لم تتقن تفانين الجنون .. قد يقصد الشاعر ، أتقن الناس تفانين قد تؤدى إلي الجنون .. أو ربما اضطره الشعر لهذه الصياغة . وكلمة " تكنولوجيا " يصعب علي الأولاد نطقها وفهم معناها .
وفى حديث الشاعر عن الكهرباء والطائرات والقطارات ، تطويل لا داعي له ، فالمقطع السابق كاف للدلالة علي ما بلغه الإنسان من تقدم .
ويقول السبع فى موضع آخر من الحكاية :
" فلنلحق بهم ..
إنكم أصحاب هذه الغابة
فافتونى .. وقولوا ما العمل ؟
ليس فى العالم طرا
من هم .. أحسن منا " ص ٥٢ .
وكلمه " طراً " صعبة فى الفهم علي الأولاد .
وكان السبع قبل حديثه إلي رعيته قد :
" قرر السبع الغضنفر
سيد الغابة ذو الشعر المضفر
أن يصير الغاب

مشتى .. فى الشتاء .. ومصيفاً
كلما الشمس علت ساحة العرش " ص ٤٩
أى أن حديثه إلى الحيوانات ، هو واجهة ديمقراطية زائفة ، فقد قرر قبل لقائهم .
وما حديثه عن التقدم مثل البشر ، الذى يملكون العلم والقدرة على استخدامه فى الصناعة (التكنولوجيا) إلا محاولة لتسويق فكرته .
" وعلينا أن نلاحقهم ونسبقهم تماما " ص ٥٢ .
وبعدها :
" – لم لا يصبح هذا الكهف قصرا ! ..
تعزف الأبواق فى ساحاته ..
والأغنيات ..
– لم لا نبنى على الأشجار أعشاشاً ..
من الخشب الملون .. " ص ٥٣ .
فالسبع لا يريد من التقدم سوى قشرته .. أين بناء القصر والأعشاش الملونة من استخدام الكهرباء فى الصناعة ، ومن بناء سفن الفضاء ؟!
ولأن الحيوانات ، تعرف أنه – حقا – لا ينتظر رأيهم ، وهو الحاكم بأمره ، لذلك جاءت التعليقات مماثلة لأفكاره :
" علق الفيل ! هكذا عودنا سبع السباع
صاحب الأمر المطاع
كلما ضاقت ..
على كفيه يأتينا النجاح ..
دائما . " ص ٥٦
ويحذو الدب حذو الفيل :
" أرأيتم مثل هذا عبقريا ؟
أعرفتم ؟
أشهدتم ؟
دائما كنت أقول وما وعيتم " ص ٥٦ ، ٥٧ .
ولم يخل الأمر من معارضة:
" فكر القرد قليلا وابتسم ،
لست أدرى بسمة الإعجاب .. كانت
أم ترى بسمة حزن وألم .
قال :
– يا أصحاب
لا شئ بعيد
قد يوافينا مع الأيام والعمر الأمل
تمتم الثعلب همسا

هامسا فى سخرية "
لكن المعارضة مرتعشة ، فهي تأتي تمتمة ، وهمسا ، خوفا من بطش الحاكم المطلق ، لذا فلا تأثير يذكر لها .
وجاء المستثمرون .. أو فى الحقيقة لصوص عصر الانفتاح ، وأومـــأ الشـــاعر إلي الأسد :
" تحت هذه اللبدة الكثة مخ
ودماغ بشرى ..
جمعت كل مزايا الانفتاح ! " ص ٥٧ .
ولاشك أن ذكر " الانفتاح " لن يعني شيئا للأولاد مما أراد الشاعر توصيله لهـــم بذكره.
وأخذ أصحاب رأس المال فى العمل :
" - قطعوا الأشجار قطعا .
فجروا جبل الصخور الضخم قطعا
وبأحجار وفحم وحديد
كبلوا النهر
بسور وكبارى " ص ٦١
وأقيمت الفنادق والملاهي ، و .. :
" كان هذا الأمر يا سبع ..
على الغاب .
خداع .. ووبال
- أكلوا لحم الأرانب والغزال ..
علقوا الطير الملون بالسلاسل والحبال
طاردوا النسر إلي أعلى الجبال
- طردوا الفيل ونمر الليل
والفهد المحارب ..
- ارتدوا الأثواب من
جلد التماسيح ..
ومن جلد الثعالب ..
- أصبح القرد لهم فى السوق فرجة
بينما صار وحيد القرن سخرية " ص ٦٢ .
ولم يكن هناك من داع للمقطع الأول :
" كان هذا الأمر يا سبع ..
على الغاب
خداع .. ووبال "
فوصف ما آل إليه حال الغابة كاف .

وتدور الدائرة على الحاكم المطلق :
" زمجر السبع .. فراح السوط فوق الرأس
يعوي .. ويزمجر
فمضى خلفهم مستسلما
يسأل الحراس عما سوف يعمل
– تُضحك الأطفال والناس الكبار .
ماشياً فوق الحبال ..
حاملا يا سبع فوق الرأس
عند الرقص .. شمعة .. " ص ٦٦ ، ٦٧ .
وأرى أن الحكاية قد انتهت عند هذا الحد ، فالمقطع الذى جاء بعدها :
" طفلة شافت برغم البعد فى عينيه
دمعة ..
صاح والدها سعيدا وهو فى مرح يصفر
– أرأيت ؟
ها هو السبع الغضنفر
سيد الغاب بعصر التكنولوجيا
والسياحة ..
– جاء فى حب ليضحكنا
بإخلاص وعطف وسماحة
قالت البنت له :
– يا لها من قصة جد حزينة ..
إنما حقا بها بعض الملاحة ! " ص ٦٧ .

هذا المقطع لا يضيف جديداً للحكاية .. فهو لا يترك المتلقى يسرح مع ما حدث للسبع بعد إهانته ، وتحوله لفرجة ، فالشاعر يعلق على الحكاية ، بدلا من ترك ذلك للمتلقي ، كي ينطلق خياله .

و فى مقولة لهمنجواى عن القصة ، أنها أشبه بجبل الثلج العائم ، المخفى منه ، أكثر من الظاهر .

وفى حكاية " فاطيما السمراء والساحرة " كانت الحياة تسير فى أمان ، لا يعكرها – أحيانا– إلا غضب الطبيعة ، حتى جاء المستعمر الأوربى فأحال أمنها فزعا .

" إلا إن هاجم بعض الحيوان الوحشى
بنى الإنسان
أو ثار البركان
أو هبت ريح عاتية
أو .. زلزلت الأرض
أو اندفع الفيضان بماء النهر إلى الوديان

حتى جاء الغرب
جاء الغرب البيض باسم المدنية جاءوا
معهم جاء الموت
فاختل الميزان
وساق الجند الأبناء السمر إلى الغربة
فى سفن من قهر وحديد
ليباعوا بعد فساد الدنيا كعبيد " ص ٦٩ .

فى تلك الأيام خرجت خمس فتيات للنزهة عند الشطآن ، بينهن فاطيما السمراء الجميلة الذكية . ضللن الطريق . برزت لهن عجوز ساحرة ، وحاولت إغواءهن بكعكها الشهى . لحظت فاطيما الشر يطل من عينيها ، فطلبت منها أن تذهب بهن إلى النهر ، حتى يستطعن تناول الكعك ، عندما يكون الماء فى متناول أيديهن . فطنت الساحرة إلي حيلتها ، تستدل على طريق العودة حين ترى النهر . ذهبت الساحرة لإحضار الماء ، بعد أن قيدتهن بحبل وهن جالسات . استطاعت فاطيما أن تُفلت الفتيات من الحبل ، واحدة ، بعد أخرى . وحين عادت الساحرة بالماء ، لم تجدهن فاشتعل غضبها . و ..

" عند النهر .
وقفت فاطيما ترجو التمساح
السفاح كي ينقلها :هي
والفتيات إلي الشط الآخر ..
قال الماكر :
ماذا أجنى من نقل الفتيات
وهن يصلحن طعاماً لى
للشط الآخر .. " ص ٨٠
وتحتال عليه فاطيما :.
" احمل أربعة منا وكُل
الخامسة لترضى معدتك .. " ص ٨١ .

وحمل التمساح الفتيات واحدة بعد أخرى ، وعندما حمل الرابعة ، رأت فاطيما الساحرة علي وصول وهى تولول ، فأسرعت إلي الماء وتعلقت بذيل التمساح . عاد التمساح مسرعا ، وفى عجلته التهم الساحرة ظنا منه أنها فاطيما .

قصة تشى بذكاء الفتاة – فاطيما – وحسن تصرفها .. الذى أدي إلي الإفلات من التمساح والإيقاع بالساحرة ، ونيل حريتهن . حاول الشاعر إلباسها ثوبا تاريخيا، فأطال المقدمة وتحدث عما فعله المستعمر الأبيض بأبناء القارة السوداء ، فبانت المقدمة مقطوعة الصلة بقصة الفتيات ونجاتهن من الساحرة ، رمز الشر ورمز المستعمر .

• • •

ثماني حكايات تضمنها هذا الكتاب . حكايتان ذاتا ملمح أخلاقى " حماقة "

و "بلبل فنان " الأولى تنهى عن تقليد الغير دون روية ، والثانية ترينا عاقبة النفـــاق . ومع أن هذا الملمح شائع فى الأدب المقدم للأطفال ، إلا أن الشاعر اســتخدمه ، دون مباشرة ، أو اقحام على الحكاية ، كما جاءت الحكايتان مكثفتين ، يناسب شـــكلهما مضمونهما الأقرب إلى الحكمة ، الأولى لم تتجاوز ثلاث صفحات والثانية حوالى أربــع صفحات .

والحكايات الأخرى ، حفلت بمضامين غير تقليدية فى أدب الأطفال. كيف يحقــق الإنسان إنسانيته ، حكاية " رحلة وراء الخيال " ، وكيف يحقق ذاته ، يرضى نفســه ، ويكون عنصرا فعالا ، متواجداً بين الآخرين ، حكاية " أغنية للأرنـــب " . والنوايــا الطيبة وحدها لا تكفى للتواصل مع الجماعة ، حكاية " حفل فى بيـــت القوقعــة " . ودفع الخطر عن الجماعة لا يكون إلا بتبادل الرأي ، والاختلاف ، ثم الاتفاق علـــى رأى تقره الأغلبية ، حتى يمكن العمل ، حكاية " حيوان غريب " . والانفراد بـــالرأي والأخذ بقشور المدنية ، سيؤدى إلى الخراب حكايـــة " الســبع والتكنولوجيــا " . والانتصار على المستعمر حكاية " فاطيما السمراء والساحرة " .

وجاءت الصياغة الشعرية موفقة ، فالشطر الشعرى يتراوح بين كلمــة وثــلاث أو خمس كلمات . وقد أدى ذلك إلى إيقاع هادئ يتسلل فى رفق إلى وجدان المتلقى.

وورود هذا المضمون عالى الدلالة ، على لسان الحيوانات ، جعله بسيطا ومقبــولا. أما رسوم الفنان هبة ، فهي " موتيفات " صغيرة ، تساعد على تمثـــل مـــا يـــدور فى الحكايات ، لكنها لا تساعد على انطلاق الخيال ، فأغلبها باللون الأســـود ، كأنهـــا مرسومة بقلم رصاص ، وبعضها بلون أحمر كاب لا دلالة فنية له ولا يدفع المتلقـــى إلى التأمل ، أو السرحان مع الحكايات .

ولست أدرى ، لماذا لا توفر دار عريقة كدار " الهلال " إمكانية للطبع بـــالألوان داخل الكتاب ، كما وفرته على الغلاف .

وقد صدرت هذه الحكايات فى " كتاب الهلال للأولاد والبنات " العـــدد ١٩٠ مارس ١٩٩٩ وتقع فى ٨٣ صفحة من القطع الصغير .

انطلاق الخيال مع محمد أمين

- **حارس الأشجار**

في المجموعة القصصية " حارس الأشجار " لمحمد أمين ، تُرك الخيال على سجيته ، فجاءت القصص مفعمة بالتشوق ، مناسبة لانطلاق الخيال والتوهم عند الأطفال .

ولقد وُفق الكاتب ، في معالجة الكثير من قصصه ، التي لا تتجاوز الواحدة ، صفحتين أو ثلاثاً ، فجاءت ذات فنية عالية ، نبع مضمونها من تشكيلها . وانطلقت بعض القصص ، من مقولة جاهزة حاولت البرهنة على صحتها .

من النوع الأول :

قصة " الساحر الشرير " . سرق الساحر ضوء النهار ، وأراد بيعه للناس لقاء الذهب والفضة . وكان موقنا أن الناس سيلجأون إليه ، بعد أن عم الظلام . ولجأ الناس إليه فعلا ، لكنهم أعطوه معدناً رخيصاً ، بدلا من الذهب والفضة ، لم يتبين الساحر حقيقته ، بسبب الظلام الذى أراده .

وتومئ القصة ، إلى ملمح أبعد من " من حفر حفرة لأخية وقع فيها " فالظلام الذى يعني التعتيم والجهالة ، والذى في حلوله ، يتم الخداع واستغلال الناس ، يقابله الضوء ، الذى في سطوعه ، تتم الأعمال الشريفة .. فالحدود معلومة .. ويكون السعي للعمل والعلم .

ولم تكن هناك ضرورة لنعت الساحر بـ " الشرير " في العنوان ، وفي السياق ، ففعله دال عليه .

قصة " رحلة مسمار " مسمار يحب البحر ، لكنه يتمرد على حمل صورة للبحر ، ستعلق على الحائط . مشفقا على نفسه من تحمل الألم الذى يسببه الدق عليه ، لتثبيته في الحائط . وحين التقطه صياد وحاول تثبيته في قاربه ، هرب ، بعد أن تلقى طرقات قليلة بضجر وفزع . ويستقر به الحال في قاع البحر ، فيصدأ ، ويفسد قوامه ملح البحر .

من لا يعمل ، ويتحمل ما يفرضه العمل من جدية والتزام (الألم) ، فإنه يفقد حيويته (يصدأ) ويكون معرضا للتحلل .. أو الموت .

نالت من هذه القيمة الجميلة .. " وخشى أن يطارده سوء حظه وتناله اللطمات من جديد " ص ١١ إن الأمر كما بينت القصة ، لا يعود لسوء الحظ ، بقدر ما يعود لعدم الصبر على شئ من الجدية ، أضف إلي ذلك أنه لا يوجد حظ حسن وحظ سيئ، الحظ يعنى الشئ الجيد ، أما عن السوء ، فالأصح أن يقال : سوء الطالع .

قصة " دجاجات السيدة العجوز " ، جاء التشكيل معبراً عن امرأة تشعر بالوحدة، تنفق وقتها فى حظيرة للدجاج ، لتقضي على هذا الشعور . " للحظات - صمتت الدجاجات ، وساد بينها الهدوء التام . ثم ككتلة من الطوب والحجارة اندفعت جميعا بلهفة إلى الماء . كانت عشرات من الرؤوس الصغيرة تتزاحم ، وعشرات من الأرجل والأصابع تنبش وتتدافع . تطايرت قطرات الماء فى الهواء .. " ص ٢٨ .

ولا يكتفى المؤلف بهذا ويقول فى نفس الصفحة ، مفصحا عن دخيلتها " بين الدجاجات لا أشعر بالوحدة أو الدهشة وإن لم أهتم برعايتها - فماذا أصنع بحياتى الطويلة " . وها هى تخاطب الدجاج " النظام !! النظام !! لو أجل بعضكم إرواء عطشه للحظات لشربتم جميعا وتجنبتم إراقة الماء على الأرض !! " ص ٢٩ .

لكن حديثها لا يجدى ، فهى تتذكر أولادها ، وتحس بالوحدة أكثر . .

ولم يكن هناك داع لأن يقول فى آخر القصة " آه الوحدة قاسية " .. فقد أحسسنا بها تعانيها حقا .. ولكن يثور السؤال .. هل الإحساس بالوحدة مناسب فى قصة للصغار .. ؟!

ومن النوع الثاني :

قصة " الدرس الأخير" ، تنطلق من مقولة " لكنك فى ثورة غضبك أفسدت ما كنت تريده " ص ٣٦ .. حقا شخص المؤلف ذلك فى منتصف القصة عندما غضب الأسد من فراشة ، وانطلق يطاردها فى الحديقة ، فأتلف زهورها ، لكن لأن المؤلف يعتبر هذه المقولة درسا علينا أن نتعلمه فقد أنفق نصف القصة الأول ليرينا أن الأسد كان يتلقى الأخلاق الفاضلة من مدربه .. لكن لأنه لم يع الدرس جيدا ، فقد اعتراه الغضب ، لأتفه سبب ، هو الفراشة ، ووجب أن يعود إلى الدرس ثانية .. خاتما قصته بعبارات مباشرة " ستظل فى القفص الحديدى حتى تتعلم كيف لا يفقدك الغضب ما تعلمته من أشياء طيبة وجميلة " .

انشغلت القصة بمحاولة البرهنة على المقولة التى ذكرناها فى البداية وأضاعت إحساسنا بتشخيص حالة الغضب التى اعترت الأسد وتسببت فى إفساد الحديقة .

قصة " قطة من خزف " ، تنطلق من مقولة الخوف فى داخلنا أكبر عدو لنا " ان خوفها ، هو الذى جعل القطة الخزفية تتقافز وتثير كل هذا الفزع " ص ٢٠ .

واضطرت القصة ، لتبرهن على ذلك ، أن تسلك مسلكا غير مقنع فنيا .

" ووقعت عيناها على قطتى الخزفية . ولأنها لم ترها من قبل ، فقد ارتعدت وانكمشت ، ثم التصقت بى تحتمى بملابسى ، وهى تشير هامسة : - القطة السوداء!! أنظر .. سوف تقفز إلى وتهاجمنى " ص ١٨ .

كل هذا الفزع لأنها لم ترها من قبل ، وأبوها واقف إلى جوارها ، يطمئنها ، ويؤكد لها أنها دمية .. لكن الطفلة ، تستمر فى فزعها .. وترتطم قدم الأب بالمقعد ، فتتناثر القطة الخزفية شظايا .. وتعتقد الطفلة - بسبب خوفها غير المقنع - أن القطة نالت عقابها ، لأنها تطاردها ، والأب عاجز عن إفهامها أن الخوف هو سبب ما تراه .

قصة " رحلة عودة للوطن " تمتلئ ذرات الماء بنشوة الفوز ، وتفرح بمتعة السـفر" ص ٤١ .
أفلتت قطرات الماء من إسار البحر . وتدور دورة من دورات الطبيعة ، يتسـاقط بخار الماء مطرا ، ويتجمع الماء في نهر ، يصب في البحر . لا يوجد بين الثنايا ، ما يشـي بحنين لذكريات ، أو نشأة ، أو صحاب ، يتيح للقصة أن تنتهي بكلمة ، أراد الكـاتب لقصته أن تعبر عنها . " تتجمع قطراتها في أنهار ضخمة ، ثم تسعي دائبة للعودة للبحـر والإقامة من جديد – في الوطن ".
وتضم المجموعة قصتي " صورة جميلة " و " ملابس البخيل الجديدة " تفيدان مـن فكرة قصة قرأناها في كتاب المطالعة ، أيام الدراسة ، لكن في خدمة مضمون مختلـف . وهي قصة الثعلب الذى تسلل من فتحة ضيقة إلى جحر الدجاج ، وبعـد أن شـبع وامتلأت بطنه ، لم يستطع النفاذ من الفتحة .
في القصة الأولى ، رسمت البنت صورة لنفسها ، ذات إطار كبير ، وبعد إتمامـها ، لم تستطع إخراجها ، من باب الحجرة الصغير . الفكرة واحـدة ، لكـن المضمـون مختلف، حيث تناهض القصة حب الذات ، أو النرجسية .
وفي القصة الثانية ، احتفظ البخيل بحلة جديدة ، دون أن يرتديها " لكنني بعـد أن سمنت قليلا خـلال العـامين المـاضيين ، لم يعـد بإمكـاني ارتداؤهـا " ص ٤٥ . اتكأت القصة على نفس الفكرة القديمة ، لتتحدث عن شئ جديد ، وهو ما يـؤدى إليه البخل من حرمان ، لا مبرر له .
وبالإضافة إلي ذلك حوت المجموعة قصصا ، حفلـت بـالقيم النبيلـة .. قصـة " حسام والطفل الأشقر " حيث أفادت من التراث . قصة الغراب ، الـذى أراد أن يسير كالقطاة ، فانتهي به الحال أن يسير كمن يحجل ، مما أثار سـخرية الآخريـن .. وقد قابل بها المؤلف ما أراده حسام من تقليد للفتى الأشقر .. وليت القصة تخلصـت من جملة " وكما أن الوردة برائحتها الذكية لا تستطيع أن تعطي ظل شجرة وارفـة " ص ٥٦ ، وجملة " من يحاول محاكاة غيره ، فهو يثير الضحك دائما " ص ٥٧ . ففـي مقابلة ماأراده حسام بالقصة التراثية ، الكفاية . خاصة إذا كانت المحاكاة ليست مـن أجل شئ نافع أو ضرورى .

ومن القصص الجميلة في هذه المجموعة " الذئاب لا تعرف الحدود " . رفض الجـار مساعدة جاره ، عندما نهش الذئب عنـزه الصغيرة . ولم يلبث الذئب أن اعتدى علي بقرة من رفض المساعدة .
العنوان زاعق بخلاصة القصة . ومع أننا عرفنا من السياق أن الذئـاب لا تعـرف الحدود ، إلا أن القصة تنتهي بـ " الذئاب لا تعترف أبدا بحدود المزارع ، ولاتهتـم كثيرا بأسوار البيوت والحظائر !! " ص ٢٦ .
وفي قصة " الفلاح والذئب " ، خرج الفلاح لاصطياد ذئـب قتـل عنـزه ، واعتدى علي بقرته ، لكن أرنبين بريين يغريانه ، فيوجه بندقيتـه إليـهما . يصيـب

أحدهما ، ويفشل في إصابة الآخر . وعندما يظهر الذئب ، تكون الطلقات قد نفدت منه . وهو الملوم لأنه حاد عن الهدف ، الذى من أجله حمل بندقيته . وبالتأكيد سيظل الذئب يهدد حظيرته . وليت الفلاح لم يصب الأرنب الأول ، لتكون الملامة تامة .

وقد صدرت هذه المجموعة عن فرع ثقافة جنوب سيناء فى يونيو ٢٠٠٠ م وتقع فى ٥٧ صفحة من القطع المتوسط ، وتحوى ست عشرة قصة قصيرة .

- **جزيرة الأحلام..حكايات شعبية .. !!**

رغم أن الفرق بين تاريخ نشر " حارس الأشجار " ومجموعة " بسام وجزيرة الأحلام " لا يتعدي العام ، إلا أننى أرجح ، أن تكون المجموعة الأولى ، كتبت من زمن بعيد ، وتأخر نشرها ، لأن البون شاسع بين المجموعتين ، فها هو محمد أمين يتألق، فى مجموعته الثانية .. وليس معقولا أن يصبح فى قمة نضجه خلال عام واحد .

أطلق المؤلف لخياله العنان ، وجاءت قصصه التى أفادت من الحكاية الشعبية ، وحفلت باللمسات السحرية ، تمس شغاف القلوب .. وتلتقي ما بقى فى النفس من طفولة البشرية ، من الغموض والسحر والتشوق لاكتشاف المجهول ، والأمنية البشرية لتحقيق الغايات ، التى لم تسعفها الوسائل .. فكانت الأفعال السحرية .. والتى فى هذه الحكايات .. تدغدغ ما بقى منها فى النفس ، وتجعلها تحس بالمتعة .

ولم يتدخل المؤلف ، فى مسار خياله ، إلا فى قصتين . قصة " البستانى وحقيبة الكذب " . الإمبراطور يكذب ، ورعيته على دينه فى الكذب ، عدا البستانى الفقير ، الذى يفوز نتيجة لصدقه بالزواج من الأميرة ، ابنة الإمبراطور . بعد أن تمكن بصدقه، من ملء ، الحقيبة التى لم تستطع أن تملأها الأكاذيب . أي أن الكذب لا يسد ركناً فى أى شئ . أما الصدق ولو مرة واحدة ، فهو فاعل ، ومؤثر .

جاءت السطور الأخيرة فى القصة ، خارج منطق الخيال ، وقد انكشف كذب الإمبراطور وخداعه ، فيتسلل خارجا من قصره ، ويأتي الإمبراطور الحقيقى ، ليتزوج البستانى من بنته ، مع أن بنت الامبراطور الزائف لا ذنب لها ، فى كذب أبيها وحاشيته . وتنتهي القصة بـ " وبعد أن توقفوا عن الكذب ، توقفت آذانهم هي الأخرى عن النمو ، بل وانكمشت حتى عادت لحجمها الطبيعي " ص ٣٨ . تقرير أخرجنا من الخيال .. والسرحان مع توقع ما يمكن أن يحدث للإمبراطور الزائف وحاشيته . لقد انتهت القصة ، قبل نهايتها بثمانية سطور ، عندما صرخ الإمبراطور الزائف :

" – كفى !! كفى !! لقد امتلأت الحقيبة وفاضت منها الأكاذيب !! .. هيا أعدوا حفل العرس .وفى قصة " الحكيم .. وعروس مملكة الشمس " تنويع آخر على قيمة الصدق . حكيم الإمبراطورية ، يصر على سلوك ، وقول الصدق ، وهو يعلم أن هذا سيكلفه حياته . وأدي الأمر ، ألا يحبس قول الصدق ، ويتحول ، طبقا للنبوءة ، إلى تمثال من الصخر.

وحدّت السطور الثلاثة ، من القصة ، من خصوبة الخيال . عندما بدأت بـ " ووقف تمثال الحكيم شاهدا على صدقه " ص ٥٥ . أو لم نعرف ذلك من سطور قليلة.

ولقد أفاد المؤلف من قصة " الخضر " ذلك النبي الذى يأتي بأفعال ، تبدو فى ظاهرها ضارة ، لكن عندما يُعرف الدافع إليها ، تظهر الحكمة . لكن فى قصتنا ، كنا نعرف الدافع مسبقا ، مما جعلنا نتعاطف معه .

أما باقى قصص هذه المجموعة ، فقد خلت من هذه الهنات ، وعبقت بجو الحكاية الخرافية الممتع . فى قصة " بسام وجزيرة الأحلام " التى حملت المجموعة اسمها " حين وصلت الموجة إلى الشاطئ ، خرج من مياهها جواد أحمر ، تركبه عروس بارعة الجمال ، كان للجواد ذيل ذهبى رائع ، وعلى رأس العروس تاج من اللؤلؤ والماس ، تجمد الصيادون كالتماثيل مبهورين . لم يعد يسمع أحدهم هدير الأمواج أو هزيم العاصفة . فقط - كان يتردد صوت العروس كغناء عذب وهى تقول - مبتسمة :

- أنا " منام " أميرة " جزيرة الأحلام !! "

ويذهب بسام (الشاطر حسن) مع العروس ، إلى أعماق الماء ، حيث الخير الوفير، والنعيم المقيم ، تاركا الصيادين ، فى انتظار رضا الطبيعة . إذا أشرقت الشمس، هدأ البحر وبشر برزق طيب ، وإذا غابت الشمس وسكنت الريح . فهي نذر عاصفة ، تنبئ بهروب السمك .

ويشد الحنين بسام إلى وطنه . وتعلم الأميرة ، أنه لن يقر له قرار ، إلا بزيارته . فتتركه يذهب ، وتحذره : إذا لمست قدماه الأرض ، فلن يعود ثانية .

يتعثر الجواد ببسام ، وتلامس قدماه الأرض . تظهر عليه آثار الزمن ، ويهرم فجأة. وهو الذى لم يجد قومه الذين تركهم ، فأصبح غريباً فى وطنه ، كما كان غريبا فى جزيرة الأحلام ، وحيث أصيب بالملل ، فلا عمل ، وكل طلباته مجابة . ولاحظ الاسم " منام " .. أي الركون إلى الدعة وعدم الحركة .

ونكتشف فى نهاية قصتنا ، أن " بسام " ، الأصح له أن يسمي عباس " ، وأنه ليس " الشاطر حسن " بل هو " الخائب حسن " فقد ترك قومه ، يتدبرون أمر رزقهم وحدهم ، وفضل خلاصاً فردياً ، بالذهاب إلي جزيرة الأحلام . فلا طال هذا ، ولا طال ذاك .

وهناك أفكار بعينها تلح دوماً على الكاتب . فالذئب الذى يعادل فى قصصه ، الإنسان السئ ، أو المعتدى على حقوق غيره ، رغم استخدامه فى قصتين من المجموعة الأولى ، يستخدمه مرة أخرى فى قصة " يوم رقصت الريح " . والاعتداء ، يحدث كما فى القصتين الأوليين ، على العنز رمز الأنوثة ، فهي أنثى الماعز ، وعلى البقرة ، رمز العطاء (اللبن واللحم) .

لكنه يعمق رؤيته فى هذه القصة . فالذئب ليس رمزاً للاعتداء فقط . لكن من يهادن شرا ، لن يأمن عاقبته . آوى البستانى . الذئب ، وحين اطمأن لنجاته من مطارديه ، هم بافتراس البستانى . فأسرع الأخير يستجير بالطبيعة المحيطة به .

فنكتشف أن الإنسان يسئ للنهر ، برمى مخلفاته فيه ، لذلك لم يناصره . وإذا كــان رد النهر معقولا ، فلم يكن كذلك رد العشب ، خاصة أنه فى بعض الأحيـــان ، ضـــار بالنبات .

كذلك فكرة الضوء ، التى عالجها فى قصة " الساحر وضوء النهار " يعالجها ثانيـة فى قصة " يوم اختطاف الشمس " . والضوء يعني الحياة والعمل .

" قال أحمد للعصفورة :

– الليل طويل !! والحياة مملة ليس فيها غير النوم " ص ٣٠ .

والظلام يعين الشر .

" وقالت العصفورة لأحمد :

فى الظلام ازداد نعيق البوم !! وكثر صراخ الخفافيش !! " ص ٣٠ .

ورغم سرقة الشمس ، فالضوء لا يختفى كلية من العالم . هاهو نجم ساهر، يضـــئ لأحمد والعصفورة طريقهما ، ليعثرا على الشمس المسروقة .

وحين يعثران عليها ، يعترى أحمد شئ من الأنانية ، ويريـد الاحتفـاظ بـالضوء لنفسه. لكن الضوء ، الخير ، أقوى من الأنانية ، ينطلق فى الفضاء ، وإذا كان السـاحر ، قد وقع فى شر عمله فى قصة " الساحر وضوء النهار " فالبومة ، فى قصتنـا تنسـى فكرة الانتقام ، والخفاش لا يحتمى فى الظلام خوفا من الصقر ، بل ينطلق كلاهمـا فى الحياة ، الضوء ، " أكثر نشاطا " ص ٣١ ، ويتناسى أحمد أنانيته .

وتبرز بعض القصص ، قيمة المعرفة .

فالتساؤل فى قصة " حكاية العم سرحان " ما قيمة الذهب إن فقدت المعرفـة .. ؟! تحولت ناقة العم سرحان إلي ذهب ، واستطاع اقتناء القصور والضياع ، وفى مقـابل ذلك ، يصاب بداء النسيان .

فى البداية لم يعبأ بالأمر ، لكن عندما نسى نفسه ، ونسى زوجته ، ونسى معـاني الكلمات .. فما قيمة الذهب .. ؟! وقد فقد حياته .

وفى قصة " برتقالتان .. وريشة ذهبية !! " يترك البستانى حديقته ، للبحث عـن العصفور الذهبى ، وعندما حصل عليه ، أراد أن يحصل على قفصه الذهـبى أيضـا ، رغم تحذير حارس الغابة له ، وكان أن فقدهما معا . وعاد ليجـد حديقتـه خربهـا اللصوص . وهو الذى ظن أنه حصل على كل شئ ، وكان يعجب لعدم اتباع حـارس الغابة لما يفعله " لماذا لم يحصل حارس الغابة الفقير على الحصان السحرى والعصفـور الذهبى – لنفسه ؟! . هو لابد أحمق . كيف لى أنا العاقل أن أستمع لنصيحة مغفل ؟! " ص ٢٥ .

وما لم يدركه البستانى ، أن الحارس لا يصون الغابة ، بالحصول على كل شـئ ، لكن يصونها بالسلوك السليم ، وعدم الجشع . أى أن الغابـة ، تصونهـا الأخـلاق السوية، أكثر مما يصونها الحراس .

والحارس ، بسبب سلوكه الطيب ، يصبح أميرا للقلعة .. " ووقعت عينا البسـتانى على أمير القلعة فتردد لسانه وتعثر ، كانت للأمير جبين عريضة ، وقامة طويلة ونحيلـة

وفى عينيه السوداوين - ذكاء الحارس ودهاؤه .. " ص ٢٥ .
والجشع فى قصة " الجنرال وبئر الماء المسحورة " مرتبط بعدوان أكبر على الناس. مياه البئر تضاعف الأشياء مئة مرة . " راح الجنرال يحلم بما سيحصل عليه من ثروة ، ويتخيل ما سوف يبنيه لنفسه من قصور ، وما يقيمه من أقواس للنصر . ولما تذكر أنه لم يملك بعد العالم - كل العالم - فكر أن ينظم جيوشه ثانية ، وأن يمدها بالأسلحة من جديد " ص ٦١ لكن البئر الذى نظر فيها الجنرال ، أخرجت له مئة جنرال ، ويبدأ مسلسل من القتال والنزاع . لا ينتهي ، ما دامت الرغبة فى الاعتداء والاستئثار تهيمن على الجنرالات . ويلاحظ أن البئر المسحورة ، تقع خلف الجبل الشرقى . أى ان منطقتنا موبوءة بالحكام العسكر ، لكن لفظ الجنرال (الغربى) يشى أن الأمر لا يخصنا وحدنا .
وفى قصة " حكاية الحكايات " ، الإمبراطور يود أن يزداد ذهبه ، وتكثر جواهره. يأخذ بمشورة الساحر ، يجمع القصص والحكايات القديمة من ذاكرة الناس ، ويخفيها فى صندوق سحرى .
" وقالت هند الصغيرة :
- بلا حكايات .. المساء طويل وممل " ص ٦٥
ولما كانت القصص والحكايات ، مستقاة من حيوات الناس ، فمعنى هذا أن الإمبراطور قد أوقف سعيهم ، ولم يعد فى امكانهم الحصول على الذهب والفضة ، لتسيير معاشهم ، ويصبح هو - الإمبراطور - هو المالك الوحيد لكل شئ .
لكن الطيبة ، والجمال والصدق ، تفسد تدبيره .
" قالت الشمس لهند :
- لأنك جميلة ، كنت فى كراستك ساطعة ومشرقة !!
وقال القمر - أيضا :
- لأنك طيبة ، لم تحجبى وجهى بالسحب ولم تمنعي ضوئى بالغيوم الداكنة !!
وأضافت النجوم :
- أنت صادقة فالنجوم - حقا - ملونة .
ثم قالوا معا لهند :
- لهذا .. سنمنحك بريق الذهب ، والتماع الماس واللؤلؤ !! وسنعطيك بهجة الألوان فى قوس قزح !! " ص ٦٦ .
وتصبح ثروة الإمبراطور من الذهب والفضة ، كابية ومعتمة ، بعد أن استردت الشمس أشعتها الذهبية ، واستعاد القمر ضوءه ولمعانه . وينفك طلسم صندوق الحكايات السحرى ، وتنطلق القصص والحكايات .. ويستعيد الناس ذاكرتهم ، علمهم ، وقد اكتملت قصة ، أو تخلق شئ جديد ، حكاية هند الطيبة ، الجميلة ، المحبة للطبيعة ، تثرى الحياة ، وتضيف إليها .
ولقد شملت هذه المجموعة ، عشر قصص ، وقعت فى سبعين صفحة من القطع الكبير ، وقد صدرت عن إقليم القناة وسيناء الثقافى ، عام ٢٠٠١ م .

علمنا الطير وشعرية الحياة فى الريف

انساب الماء يروى الأرض العطشى ، وسرعان ما جاءت طيور الشمال البيضاء ، وطيور الجنوب السمراء : " واكتمل المنظر روعة حين تداخل السرب الأبيض على السرب الأسمر وصنعوا كرة رائعة فى الجو " ص ٥ .

أي حميمية ، وأي شعرية ، وقد امتزج شمال مصر بجنوبها ، أبناء مصر جميعا ، بعد أن انساب الماء ، النيل ، شريان الحياة فى مصر : " فأدركنا معني رائعا علمنا الطير إياه" ص ٥ وسبق أن وشى سياق القصة الأخاذ بذلك . قصة " علمنا الطير " والمعنون بها المجموعة القصصية التى نحن بصددها .

لم يعلمنا الطير فقط ، لقد علمنا الماء ، وعلمتنا الأرض ، وعلمتنا الحياة .. العم سلامة بائع الفاكهة ، يصر على تعلم القراءة والكتابة . يعطي من يعلمه حرفا برتقالة، نافيا صفة العبد ، عمن يتعلم .. من علمنى حرفا صرت له عبدا . لا . سأعطيه مقابل ما يعطيني. ويستجيب له الناس ، ويرقى العم سلامة فى الوعي ، فتترع نفسه إلى الفن، ويرسم ما حوله . قفص برتقال ، ميزان . ويفيد من الكتابة فى عمله ، فيكتب أسعار بضاعته على لافتة ، وأسماء من يشترون بالأجل . وانتقلت العدوى لمن حوله ، فأخذ الباعة يتعلمون .

إن الرغبة والإصرار ، مكنتا العم سلامة مما يريد ، وأشع فيمن حوله . لكن العم سلامة يتمادي ، أو هو الكاتب الذى تمادى ، فجعله يكتب إلى الحاكم شاكيا من رجل غشاش ، وحذر الحاكم الرجل ، فامتنع عن الغش .

هل تمادي الكاتب ليخبرنا عما يستطيعه المتعلم .. ربما ، لكن غش الرجل ليس مضفرا فى نسيج القصة التى تتحدث عن التعلم : " وذات مرة رأي رجلا يغش الناس وينقص فى الميزان ، نصحه العم سلامة بأن يكون أمينا " ص ٨ ، فبدا مقحما ، وآتيا من الخارج .

وإذا سلمنا بتعلم العم سلامة الكتابة ، فلن نسلم أن يكتب : " أحب البرتقال .. إنه فاكهة جميلة فهو غذاء للإنسان نقطفه من شجر جميل يتغذى بماء النهر أو مطر الشتاء ويثمر بقدرة الله " ص ٨ ، إن الرجل تعلم لتوه ، ولم يرتق وعيه لهذا التكوين اللغوى بعد .

ويستمر عزف الكاتب على لحن العلم . يتخطى أوراقا يكتب عليها ، إلى كتاب يزود بالمعرفة . فى قصة " بكتاب واحد " بطلنا الصغير لا يملك ثمن شراء قصة ، مما

يراه في أيدى زملائه . ويمنعه خجله من استعارتها منهم . طلب الأستاذ من التلاميذ أن يرسموا أحد أبطال مصر الوطنيين . سارع الأولاد إلى رسم زعماء مثل مصطفى كـامل وسعد زغلول ومحمد فريد . ورسم فتانا أباه ، مثالا للبطولة ، لأنه يشقى من أجلـه . سر الأستاذ منه : " ثم أشار الأستاذ إلى قميصه وقال : إن هذا من قطنه الذى يزرعه ، إنه يزرع الشجر الذى نستظل به ، ويرعى الأبقار التى تأتى لنا باللبن والخير"ص١١ .
ويهديه الأستاذ قصة عن الأرض .

الاجتهاد والإبداع ، جعلاه يحصل على ما تمنى . واستثمر جيدا ما حصل عليـه ، بادل بطلنا قصته مع زملائه ، لقاء ما بحوذتهم من قصص فكأنه بإبداعـه ، وحسـن تفكيره ، قد حصل على عشرات الكتب .

بعد امتلاك الكتاب ، يأتى النجاح ، ليس على المستوى الفردى فقط ، لكن علـى المستوى القومى أيضا . الولد يجرى فى الغيط ، ليبشر أباه بنجاحه ، وبسقوط خـط بارليف . عندما ننجح ، يسقط العدو . ونجاحنا شرط لهزيمة العدو الإسرائيلي . هزيمـة جسدتها كلمات مقطرة من الشعرية " سمرة الأرض توشك أن تنطق بالخضرة " آخـر سطر فى قصة (وسقط خط بارليف) .

والنصر لم يأت دون تضحيات . قصة " بيت النخلة " فـالمرأة العجـوز تحتفـظ بصورة ابنها الشهيد ، الذى كان يحب الرسم .. ومن أفضل ما رسم ، ولد فوق نخلـة يتأمل العالم ، ولا نستطيع أن نغض الطرف عن " يتأمل العالم " فهي صعبـة فى قصـة للأطفال ، ولا تناسب الصبى المرسوم ، فلم يزل أخضر .

وقالوا عن ابنها أنه دمر موقعا للعدو . وتطلع الخالـة وطنيـة إلى الأولاد وهـم يلعبون، وتحكي لهم الحكايات ،وتريهم صورة الشهيد فى الزى العسكرى .. آملـة ، وأملنا معها ، أن يزيح الجيل الجديد الخطر الصهيوني من سماء الأمة العربية . وهـاهم الأولاد يسيرون على خطو الشهيد . فى العيد يذهبون إلى أهالى القريـة ، يـهنئونهم بالعيد ، كماكان يفعل .

بعد طرد العدو من سيناء مصر ، نطقت الأرض بالسنابل قصة " السنبلة " ما أجمل اللحن النابع من موسيقى الحياة فى الغيط ، والولد ، يخفق قلبه فرحا ، ويسرع ليبشـر أباه بطلوع سنبلة . إن الشعرية هنانابعة من صدق المشاعر المنبثقة ، من معنى طلـوع سنبلة فى حياة فلاح ، كد وعرق وسهر الليالى يـروى الأرض ، وانتظـر الأمـل ، السنبلة .

والابن الذى بشر بسقوط خط بارليف ، يسرع ، ليبشر أيضا بطلوع السنابل .

ويصاب الولد بالدهشة حين يرى السنبلة كبرت ، ما بين ذهابه لأبيه وعودته بـه . لكن الأب الذى عركه العمل فى الحقل ، يعرف أنها سنبلة غير السنبلة التى رآهـا . ويخبرنا الكاتب من باب خفى أنها ليست مجرد سنبلة ، بل هى سنابل ، وقد أترعـت الأرض السمراء بنشوة النصر .

وإذا كان النصر لا يأتى عفوا ، فالسنابل كذلك .

السنابل تطلع بالمثابرة على العمل قصة " حتى يأتى الغداء " وحتى يجهز الغـداء ،

فالأب يحدث أولاده عما فعله في يومه . هو في الحقيقة لا يحدثهم ، ولكن يدفعهم لأن يحذوا حذوه : " كنت سعيدا والمطر ينهمر فوقي أثناء العمل في الأرض .. كان الزرع في حاجة للماء فأردت أن أشاركه فرحته .. واليوم يا أولادي لقد شققت مجرى الماء وغرست صفصافة جنب السبيل وغنيت موالا .. " ص ١٧ .

لاحظ يشارك الزرع فرحته وانتبه إلي الشعرية، وهي هنا نابعة من تجاوز اللغة للمعني الآني في الحقل ، إلى الفرحة حين يرتوى أى كائن .. سواء كان الارتواء ماديا أو معنويا ، والامتزاج الحميم بين الرجل وزرعه ، يتعدي إلي الامتزاج الحميم بين البشر والطبيعة .

والأب غني موالا .. والغناء قد يكون مكافأة لنفسه ، وقد أدت عملها ، كما تحب أن يؤدي والغناء قد يكون فرحا بالطبيعة ، وتناغما مع موسيقاها ، وقد يكون الغناء من أجل البراعم التى على وشك الطلوع .. وقد يكون كل ذلك .

والموال ، يعني الديمومة والاستمرار ، ألسنا نقول في حديثنا اليومى موال كل يوم. والموال عادة حافل بشجن الوجود وحكمة الحياة ..

ويتحدث الابن ، وكأنه جواب القرار : " حفظت نشيدا عن الأرض ، وضمدت جرح أمي حين تعثرت وهي تعمل ، ووضعت البرسيم أمام العنز فنظرت لى بفرح وقالت ماء فجريت وأحضرت لها الماء فشربت .. وضحكت أمي فخيل إلي أن الشمس قد أشرقت وبدأنا نشعر بالدفء " ص ١٧ .

نشيد للأرض ، التى لم نفرط في شبر منها ، بتضحيات جنودنا من أبناء الفلاحين والفئات الكادحة ، الأرض التى كافأتنا بطرح السنابل ، وكما شارك الأب الزرع فرحته بالماء، تبث العنز الفرح للابن بطلب الماء .

وتنتهي القصة بـ " ما أجمل دفء الموقد وما أجمل حكاية أبي ، وما أشهي طعام أمي " ص ١٧ .

أيصح هذا بعد أن أحسسناه طوال القصة ، رغم البرد والمطر ، وقد جعلهم العمل سعداء . بل وددنا لو خفف الكاتب قليلا من الصورة الوردية ، حتى لا يظن الطفل أن الحياة كذلك .. حقا هناك تعثر عابر للأم .. لكن الحياة فيها من الصعاب أكثر من ذلك ، وكلما تغلبنا عليها زدنا سعادة وثقة .

واحتفاء بقيمة العمل تأتي قصة " حتى تبيت العصافير " ، يطلب الأب من ابنه ، في العطلة الصيفية ، أن يعمل . وكان عمله أن يدق علي قطعة من الصاج ، حول حقل من العنب ، حتى لا تقترب العصافير من حبات العنب . وكان أبوه يعود من الغيط وقت العصر ، وكان على الصغير ألا يعود إلى البيت ، إلا عند الغروب ، عندما تبيت العصافير . ولم ينتظره أبوه ، وبدأت أول معاناة للصغير بسبب العمل . كان عليه أن يعود إلى البيت وحده . " وبدأت أشعر بالتعب وسئمت حبات العنب ، وحين رأيت أبي عائدا للبيت ، كدت أبكي ، وهو يمر بجواري " ص ٤٢ .

وتنتهي القصة بحديث الأب :

" انتظر تجد كل شئ جميلا مدهشا .. ترى الكون في حالة حركة دائمة .. عند

ذلك ستعرف قيمة العمل " ص ٤٢ ثم على لسان الولد :
" وكبرت وعرفت قيمة العمل .. لكنني يومها ، وأنا عائد وحدي للبيت مع غروب الشمس ، عرفت قيمة الرجولة والاعتماد على النفس " ص ٤٢ .
وليت القصة صورت عودة الولد للبيت بعد أن تركه والده ، وأدي مهمته ، لنتعرف علي أحاسيسه بدلا من حديث الأب ، وحديثه .
عندما يعمل الإنسان ، ويتعب ، يشتاق للترويح عن النفس ، ويأتي العيد .. قصة " شمس العيد " . كل شئ يرتدى ثوب الجدة . الملابس جديدة .البيوت منسقة . الشوارع نظيفة . المحال مزدانة . والبهجة تشع من الوجوه والأشياء .
وفى نهاية العيد :
" شارعنا ازدحم بالأوراق والنفايات وبقايا قشور الفاكهة ، نظرت إلي شارعنا بأسف وقلت : متى تعود ثانية يا عيد ؟ " ص ٢٣ .
أي .. متى تعود النظافة والبهجة .. أو لماذا لا تكون أيامنا جميعا بهجة ، وكل ما حولنا نظيفا . وكأن الكاتب هنا ، يستدرك ما أغفله فى قصة " حتى يأتي الغداء " حيث جعل الحياة وردية . ويستمر فى استدراكه فى قصة " حينما غاب القمر " ليضحد الخرافة المنتشرة فى الريف :
" يقولون أن فى الحقل عفريتا اسمه (أبو الليل) يختبئ فى الظلام حتى إذا رأي أحدا هاجمه " ص ٢٤ لم يعر معوض هذا التفاتا ، وذهب لرى حقله ليلا ، حيث المياه متدفقة فى الترع ، طبعا لم يجد شيئا مما يتقولون به ، وشجع زميلا على العمل معه .
لكن العدو الرابض علي حدودنا الشرقية ، لن يتركنا نبدع فى العمل ، أو يحصل أولادنا العلم . تقصف طائراته مدرسة ابتدائية فى بحر البقر ، بالقرب من مدينة بورسعيد . ويحذرنا الكاتب فى عنوان القصة هذه " حكاية .. ليست للنوم " . هذه حكاية لليقظة والقلق .
والطائرات لم تقصف المدرسة ، ليتوقف التعليم فقط ، ولكن أيضا ليتوقف الحلم فى الغد . فقد أوقف القصف ما كان يرسمه الأولاد .. الطرق المظللة بالأشجار .. حديقة .. ساقية .
وعنوان درس " الإصرار " الذى نسى علي السبورة غير متداخل فى السياق القصصى .
والتعلم ليس قاصرا على تلاميذ المدارس والجامعات فقط ، لكن التعلم لابد أن يصل إلي أبناء الشعب جميعا ، خاصة الفلاحين . الولد فى قصة (سر الحياة) يذاكر بصوت عال ، وفلاح يتبعه ، يلتقط منه الكلمات . ويؤكد الولد له أن سر الحياة هو الماء . قد يكون هذا سر الحياة حقا ، أما سر الحياة ، الذى يبعث علي التجدد ، والتغير ، والتقدم ، هو التحايل على التعلم . كان بائع الفاكهة فى قصة " عم سلامة " يتحايل ليتعلم من زبائنه . والفلاح هنا يتعلم بمتابعة تلميذ فوق حماره ، فى طريقه إلي عمله . إن سر الحياة كما تنبئ به القصة ، هو فى الإصرار والتحايل للحصول علي العلم .

وإذا كان الشعب يبذل جهده ليحصل علي العلم ، فلا علم دون أخلاق حسنة . في قصة " عفوا .. أيها الحمار " صاحب الحقل يصف حماره دائما بالغباء ، وحين ظن أنه ضاع وجده في البيت .

فمن الغبي إذن .. ؟!

ويعود كاتبنا إلي نقد حياتنا . في قصة " بائع الكتب " يرى البائع الناس ، عازفين عن بضاعته ، منكبين علي شراء البرتقال . تغيرت أولياتهم ، بعد أن كانت في السابق شراء الكتب أولا . إلا أن المستقبل ، رغم ذلك ، مبشر ، فالطفلة أمل تأخذ منه كتابا وتعطيه برتقالة ، يأخذها البائع ليسد جوعته . فالجوع أو الحاجة هي السبب في انصراف الناس عن الكتاب ، لكن الأمل سيظل موجودا في الأجيال الجديدة ، التي تضحي بجزء من طعامها ، في سبيل غذاء عقولها .

ومهما كان الإنسان فقيرا ، فإنه يستطيع بعمله أن يترك شيئا ينفع الناس من بعده. عندما أدرك عم صالح اقتراب منيته ، في قصة " حكاية قبل النوم " زرع شجرة علي الطريق ، يستريح في ظلها السائرون عليه .

" أحضر في أحد الأيام شتلة شجرة وغرسها في الطريق .. لقد غرسها يا أحبائي علي حافة الطريق لسببين :

الأول : لأنه لا يملك أرضا يزرع فيها فهو يعمل في أرض الغير .

الثاني : لأن السائر في حر الصيف لا يجد مكانا يستريح فيه " ص ٣٥ .

والسببية تضعف القص ، كما أن السبب الأول سبق أن أخبرت به القصة في افتتاحيتها : " كان عم صالح رجلا فقيرا لا يملك من دنياه غير الفأس " ص ٣٤ .

وفكرة زرع شجرة تلح على الكاتب ، فيختم بها مجموعته بقصة " مكان مناسب" حيث الولد خضر يود زرع شجرة ، تأسيا بطبيب الوحدة الصحية ، الذى زرع شجرة عند مدخل القرية ، عندما كان طفلا ، أصبحت عملاقة وارفة الظلال .

منظومة قصصية تعطي مذاقا روائيا. أعدت ترتيب قصصها وأنا أتحدث عنها ، وأسقطت بعضها .. كي أحظى بمذاق الرواية أكثر. وجو هذه المجموعة ، نفتقده في قصص الأطفال .. حيث تدور حوادث قصصنا في الريف .. وأبطالها من أبناء الفلاحين في الغالب . ولا شك أن هذه القصص ، أقرب إلي وجدان المتلقى ، الذى يشكل أغلب أطفال مصر ، الذين يعيشون بعيدا عن المدن الكبرى ، عندما يرى نفسه وحياته ، وبيئته على الورق .

ونسج الكاتب لوحاته من الشجر الوارف ، والأرض العطشى ، والسنابل الطالعة، والماء المنساب في الترع ، والطير المحلق في السماء ، والخضرة ..

وحفل هذا النسيج ، بقيم حب العمل ، والسعي إلي العلم ، واليقظة للعدو الإسرائيلي ..

وهذه القيم ، قد عمقت من شعرية القصص ، بالإضافة إلي عناصر الشعرية الأخرى التي سبق أن تحدثنا عنها ونحن نستعرض المجموعة . وهذه الشعرية ، مضاف إليها الصدق في تناول حياة الفلاحين وعدم التحرج من نقدها ، والفرح لما فيها من

جمال فى الزرع والنفس .. كل ذلك يجعل هذه القصص ، تنساب - كماء الترع - إلى وجدان الأطفال . يتألقون بالبشر مع تألق الأطفال فيها ، سواء لسقوط خط بلرليف، أو لطلوع سنبلة ، أو زرع شجرة . ويحذرون من الأشياء غير السوية ، وتترسب فى لاوعيهم الحيطة منها . والأهم من هذا وذاك ، تمتعهم بالإحساس بالجمال .. مع شخصيات أبناء الفلاحين فى شغفها وفرحها وعملها واستذكارها . ومع البيئة فى الريف ، حتى يكاد الأطفال يشمون رائحة الأرض ، ويحسون طراوة الزرع ، ويسمعون صوت الماء فى الترع ورفرفة الطيور فى الجو .

وأكثر الكاتب من ألفاظ مثل : رائع ، سعيد ، صاف ، فرح ، جميل ، دفء ، حب ، ومشتقاتها فمثلا كلمة جميل ومشتقاتها ، ذكرها فى قصة " بيت النخلة " ثماني مرات منها ثلاث فى سطر واحد وأتى بعبارات مثل " نشأ علي المحبة " ص ٢٤ و " كان يزرع الحب مع الحب " ص ٤٠ . مبالغة تخدش عفوية القص .

ويحاول الكاتب دوما أن يُحمل أسماء أبطاله بدلالة ، قد تكون صارخة أحيانا مثل اسم " وطنية " وأحيانا يمكن تحملها مثل اسميّ " أمل " و " خضر " .

وقد صدرت هذه المجموعة ، للكاتب فريد محمد معوض ، عن كتاب " قطر الندي" عام ٢٠٠٠ وتحوى عشرين قصة ، وتقع فى ٤٦ صفحة من القطع فوق المتوسط ، ويبدأ القص من الصفحة الرابعة .

وتحوي تسعة رسوم ، غُفل من التوقيع ، وهى فى الغالب لبعض الأطفال ، وموفقة لحد كبير ، وإن مالت بعض ألوانها إلي الأخضر الداكن ، والبمبى المنطفئ ، والأزرق خاصة رسم الغلاف ، وهى ألوان لا تبعث البهجة فى نفوس الأطفال، مثلما تفعل الألوان الساخنة مثل الأحمر ، أو الدافئة مثل البني بدرجاته ، والأصفر ، والأخضر الزرعي .

الظاهرة الطبيعية فى قصص صنع الله إبراهيم

تحت عنوان " حيوانات آخر شقاوة " صدر لصنع الله إبراهيم كتاب يحوى إحدى عشرة قصة قصيرة ، حفلت بالظواهر الطبيعية فى حياة الحيوان .

فى أربع منها ، تقدم القصة الظاهرة ، ولا نستطيع أن نستنطقها بشئ ، وفى السبع الباقية ، نستطيع - ببعض الجهد - أن نصل إلى بعد آخر ، خلافاً للظاهرة .

من قصص النوع الأول قصة " يوم فطام الأشبال " : مضت ستة أسابيع على مولد الأشبال ، ونمت لها أسنان حادة ، وأدركت اللبؤة أنه قد حان فطامها . طردهم بعيدا عن ضروعها ، واصطادت ظبيا وحاولت إطعامها ، " لكنهم اكتفوا بتمزيق الجلد وامتصاص الأحشاء الداخلية " ص ١٧ وبعد قليل " قفزوا فوقها وتلمسوا ضروعها بأسنانهم الحادة . ولم تجد اللبؤة بدا من الاستسلام ، فالفطام لا يتم فى يوم وليلة ، ولابد أن تمر بضعة أشهر ، قبل أن يتخلى الأشبال تماما عن لبن الأم ، ويصبح اللحم الحى طعامهم الوحيد " ص١٧ .

وفى قصة " الفهد الأسود يعد وليمة " يحاول الفهد صيد نسناس ، فلا يمكنه الوصول إليه فى أعلى شجرة على شاطئ نهر ، ويسقط فى الماء . يجد ضالته فى ظبى كان يرتوى ويوقع به ، يدفن أحشاءه فى مكان بعيد ، حتى لا يجذب إليه باقى الحيوانات ، إذا رماها بالقرب منه ، واحتفظ بما بقى منه فى أعلى شجرة ، لوجبة تالية.

وفى قصة " الأرنب الكبير يفقد عرشه " أرنبان يتصارعان ، أحدهما يرأس جماعته ، والآخر الذى يقاربه حجما وعمراً ، يتطلع لأن يحل محله ، وينتصر الأكثر شبابا : " وانزوى الأرنب الكبير فى أحد الأركان ،كان يلعق جراحه ويتأمل تصاريف الأقدار فى عالم الحيوان " ص ٧٠ .

و قصة " الخفافيش تقوم بعملية تطهير " تتحدث عن ظاهرة تناول الخفاش للبعوض ، ويستطرد الراوي ليرينا كيف ، تضع أنثاه ، وكيف ينام ، وما يتخلف عنه من فضلات : " تراكمت إفرازاتها فوق الأرض ، وزحفت الصراصير فوقها ، وانتشرت رائحة النشادر القوية فى أنحاء الكهف . وهى الظواهر المسئولة - فى الغالب عن كراهية الإنسان لهذا الحيوان المفيد " ص ٧٧ ومن قصص النوع الثانى قصة " ثعلب الصحراء فى خطر " عن ظاهرة الصدي فى الصحارى ، وإصابة الحيوان بالفزع :

" وعندما تهب الرياح بشدة ، تنهار قمم بعضَ هذه التلال ، فتنزلق ملايين الحبيبات الرملية الجافة على السطوح المنحدرة للتلال ، وتحتك ببعضها البعض ،

فتفرغ شحنات كهربية بفرقعات تضخمها الوديان ، إذ تصنع للصوت صدى ، فيتضاعف حتى يصير دوياً صاخباً مثل طلقات المدافع أو رنين الأجراس " ص ٨ .

جمعت أنثى الثعلب صغارها ، وهربت من جحرها ، بحثا عن ملجأ آمن ، وهى تجهل سر هذه الظاهرة ، ونبهت على صغارها ، بما تفعله ، وهى تتبعها ، ونفذت التعليمات ، عدا صغير مشاكس ..

وعندما عادت للبحث عنه ، كادت الرمال المتساقطة أن تدفنه ، فأنقذته فى آخر لحظة و " زمجر الصغير فى وجهها غاضبا ، فعضته .

كانت العضة قوية ، فأنّ ، ثم خفض رأسه . وأيقنت أن تمرده قد انتهي ، فلعقت مكان العضة ، ثم استدارت منصرفة ، وتبعها هو فى استسلام " ص ٩ .

فعدم طاعته لأمه ، كادت تكلفه حياته .

وفى قصة " الأيل الأحمر يتحدى " :

" وذات صباح ، اعترى رأسه صداع غريب . وبعد قليل ، برز على جانبيها ورم خفيف . ونما الورمان بسرعة إلى نتوءين صغيرين ، ثم تغطيا بطبقة ناعمة من جلد مخملي الملمس " ص ٢٤ .

وتحول النتوءان إلي قرنين ، وأصبح يستطيع أن يأكل من الأغصان العالية من شجر الدردار ، دون أن يخشى أن يبعده من هو أكبر منه ، ولن ترهبه بعد ذلك كلاب الصيد ، فلديه ما يدافع به عن نفسه . وفى تناطح مع غريم له يسقط قرناه ، فيفر هاربا : " ولم يكن من بأس فى ذلك ، فلن يمضى شهر ونصف الشهر حتى ينمو له قرنان جديدان " يتفرعان كسابقيهما ، ثم يسقطان فى الربيع القادم ، لينمو غيرهما . وهكذا دواليك ، ما بقى له من عمر " ص ٢٨ .

وتخبرنا الظاهرة ، أن من لايملك سلاحه ، لن يستطيع الحصول علي قوته ، ومن لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، سيفقد طعامه ، وقد يفقد نفسه .

وفى قصة " الدب القطبى والنشيد الوطنى " استعراض لعادات وحواس الدب ، حاسة شم قوية ، وقصر نظر ، وفضول لمتابعة من يجرى منه ، واستجابته للصوت ، تجعله يقعى عند سماع الموسيقى ..

وثمة عالم يجرى تجاربه على البيئة ، وجد نفسه وجها لوجه قبالة الدب . وبعد مناورات بينهما ..

" تذكر زميلا له تعرض لموقف مماثل ، فانطلق يصفر لحن النشيد القومى ، وعندئذ، أقعى الدب على الأرض ، وأخذ ينصت باهتمام " ص ٣٣ .

فمضى صاحبنا يصفر بلاوعى . وكانت المفاجأة أن تحول الدب عنه .

فهل لأن الموسيقى ألانت الوحش .. أم أن الخبرة التى اكتسبها العالم من زميله أفادته وقت الزنقة .. ؟! أم للإثنين معا أم يومئ من باب خفى للسر البائح للنشيد القومى ؟!.

وتتحدث قصة " وأنقذت الفيلة رضيعها " عن ظاهرة ولادة فيل . قطيع الفيلة يحيط بالأم الحامل ، يزعق حتى لا تقترب باقي الحيوانات ، فتعطل عملية الولادة ، أو تلتهم الرضيع ولم يزل طريا . وبعد الولادة ساعد أفراد من القطيع لجعل الوليد يخطو أولى خطواته .. بعدها ذهب القطيع إلى الماء . تعثر الصغير في الطين وكاد يغرق فيه ، أسرعت الأم لنجدته ، فأنقذته وغاصت هي .. تضحية متوقعة من الأم .. لكن الظاهرة ، تقول .. ما دمنا في جماعة لا خوف علينا .. فقد ساعدت الجماعة في الولادة بسلام ، وحين ماتت الأم ، تلقفت الصغير ، زميلة لها لرعايته .

وفي قصة " وتولى الجمل القيادة " كان الجمل يسير براكبه في الصحراء ، والراكب " أفقدته الحرارة جزءً من وزنه ماء ، الأمر الذي أثر على اتزانه العقلي وسلامة تفكيره ، فضل الطريق دون أن يعي " ص ٥٥ . الجمل ، صاحب حاسة شم قوية .. شم رائحة مكان به بئر ونخيل ، فاتجه إليه ، بينما الراكب الذى فقد قدرته على التفكير السليم ، لم يطاوع الجمل .. ولوى عنقه عنوة .. إلى أن : " وشعر الجمل بأن القبضة التي كانت تمسك بمقوده قد تلاشت ، فتوقف عن السير ، وظل واقفا - دون حراك - بعض الوقت . وعندما لم تبدر من صاحبه حركة ما ، استدار وعاد أدراجه إلى الطريق الذى احتفظت به ذاكرته " ص ٦٠ . تتحدث ، القصة ، عن ظاهرة العطش في الصحراء ، وتأثيرها على الإنسان والحيوان .. فالجمل لا يعاني من مشاكل فقدان السوائل من جسمه كما يعاني الإنسان ، فأنسجة جسم الجمل تحتفظ بمخزون وفير من المياه ، بينما الرجل أوشك على فقدان السوائل ، وكاد أن يذهب عقله ، ويتوقف قلبه .

ويقول الراوى : " كانت هرمونات جسمه تعمل على تقليل كمية الماء التي تخرج في البول والبراز ، وهي ميزة كان الرجل محروما منها " ص ٥٥ ، ٥٦ .

والحقيقة أن جسم الإنسان ، أيضا ، في حال فقد الماء يفرز هرمونا يمنع إدرار البول يسمى ADH من الغدة النخامية في المخ ، يصل عن طريق الدم إلى الكليتين ، ويقوم بإرجاع قدر كبير من الماء المتدفق إلى الكليتين للدم ، لتعويض نقص الماء . لكن ، بالطبع مقدرة الجمل أكبر على العمل لأن جسده أكبر ، ومهيأ لتخزين كمية كبيرة من الماء .

فهل يريد الراوى بقص هذه الظاهرة ، أن يخبرنا ، بعدم الوقوف ضد الطبيعة .. طبيعة الجمل ، الذى عرف طريقه .. ونرد عليه أن راكبه لم يقف في طريقه .. إلا لأنه فقد عقله .. يبقى أنه قصها لنتعرف عليها فحسب .

وعن الوقوف ضد الطبيعة ، تدور قصة " عندما طفح الكيل " فالثور معتاد ، على حياة البراري .. يأكل ويمرح في حرية ، لكن نظراً لوجود حيوانات مفترسة ، كان يحصل على أكبر قدر من الطعام ، يخزنه في معدته ، ويتفرغ لاجتراره ، ومضغه في مكان آمن . ورغم استئناسه إلا أنه لم يزل يحتفظ بهذه الخاصية : " وفي الحظيرة ،

وسط حيوانات الحقل المستأنسة ، كان آمنا من كل خطر ، وكان الأكل متوفراً ، يودعه صاحبه الحظيرة بكميات كافية مرتين أو أكثر فى اليوم . لكن طريقته فى الأكل لم تتبدل ، كما أنه لم يفقد حنينه الغريزي للحركة والانطلاق " ص ٦٢ .

فالقيد – رغم وجود الطعام الوفير – لم يفقده طبيعته فى الجرى والانطلاق ، الحرية .. لذلك ينتهز فرصة مواتية ، ويهرب لينعم بحريته ، غير آبه بما قد يتعرض له من أذى ، وحتى لو كان مصيره الذبح .

وكان أحرى بالراوى أن يكتفى من الظاهرة ، بما يخدم ما أراد توصيله لنا عن الحرية ، لكنه يستطرد فى أكثر من موضع بما لا داعي له : " وكان أن تهيأت أسنان الثور ومعدته لهذه الطريقة فى الغذاء ، فالأسنان الأمامية المحدودة – فى مقدمة الفك السفلى – مصممة للإمساك بالحشائس وتمزيقها . أما الخلفية فهي ضروس قوية للطحن . وتشكلت المعدة من عدة غرف ، منها ما خصص للتخزين ، وما يتولى عملية الهضم . " ص ٦٢ .

وفى قصة " الحصان ينتقم لرفيقه " حصانان ، صديقان ، ولهما ذكريات مشتركة ، فعندما ماتت أم الحصان ذى الشامة البيضاء : " بقى صديقه الكستنائى اللون إلى جواره طوال الوقت ، يدعك له أنفه بخطمه فى ود ، ويداعبه بعضاته الخفيفة ، وبفضل هذا الصديق استعاد شهيته للطعام " ص ٤٩ .

وتعرض الحصان الكستنائى لمعاملة بائسة من صبى السائس ، وضربه بالسوط ، تأثر الحصان ذو الشامة البيضاء و : " كان حزينا لما أصاب رفيقة الذى كان أقرب الكائنات إليه فى هذه الدنيا . فقد ولدا فى نفس الوقت تقريبا ، وفى هذه الحظيرة نفسها ، ترعرعا معا ، وكثيرا ما لعبا ، وتبادلا الركل والمطاردة " ص ٤٨ .

لذلك انتهز فرصة ، اعتلى فيها الصبى المعتدى ، ظهره ، وجرى به خارج الحظيرة، وألقى به من فوق ظهره ، عقابا له على ما فعله مع صديقه .

إن القصة هنا ، تتجاوز ظاهرة التعاطف بين الحيوانات ، إلى موقف إنساني .. فالحصان الذى يكن صداقة ويحتفظ بذكريات طيبة ، لم يرضه ما حدث من اعتداء على صديقه .. وقرر الفعل .. أن يعاقب المعتدي. لم استخدم كلمة ينتقم . سيئة السمعة الحضارية – التى جاءت فى العنوان .

والرد على المعتدى مقنع ، فهو ليس نابعا من قيمة مجردة ، بضرورة معاقبة المعتدى، لكنه نابع من ذكريات حياة مشتركة بين صديقين ، وما تستتبعه هذه الصداقة من فعل ، وهنا جماله .. ويزداد الجمال إشعاعاً ، لما يستدعيه هذا الفعل من تغيير . فالصبى إزاء ما وقع له ، سيعيد النظر فى سلوكه مستقبلاً ، والحصان المعتدي عليه ، ستطيب نفسه عندما يعلم ما فعله صديقه من أجله ، ولن يستسلم للإحباط . والحصان الذى قام بالعقاب ، سيشعر بالراحة والرضا عن نفسه ، لأنه أنصف صديقه، ورد له بعضا من جميله عليه.

وفى كثير من قصص هذه المجموعة ، ينبع الفعل من داخل الظـــاهرة الطبيعيـــة . فالفطام عند الثدييات يتم بهذه الطريقة منذ آلاف السنين وحتى اليوم ، وكذا صيـــد الفهد للفرائس ، وطريقة حياة الخفاش وصيده للبعوض والحشرات ، وظهور قـــرون حيوان الأيل ، وطريقة الفيلة فى الولادة ، وتحمل الجمل للعطش .

سلوك وأفعال متكررة ، ولا تؤدى إلى أي تغيير فى حياتها ، اللـــهم إلا إذا تغـــير المناخ ، وتغيرت التربة ، فيهلك بعض الحيوان ، ويتكيف بعضه ثم يثبت على الوضـــع الجديد آلافا أخرى من السنين . والحيوان فى جميع الأحوال ، لا دخل له فيما يحدث .

ومهما كان ما تشعه الظاهرة الطبيعية والطبيعة من جمال ، فإن ابتســـامة طفـــل ، تشع جمالا ، يفوق تأثير ما تشعه كل زهور العالم من جمال . وحركة الإنســـان فـــوق سطح القمر ، فاق تأثيرها ، كل حركة النجوم والكواكب .

فالإنساني ، يشع جمالاً أكثر ، مما هو طبيعي .

وقد صدرت هذه المجموعة القصصية فى سلسلة " كتب الهلال للأولاد والبنـــات " العدد ٢٢٤ - يناير ٢٠٠٢ ، وتقع فى ٧٧ صفحة من القطع المتوسط . وبها رســـوم كرسوم كتاب العلوم لتلاميذ المدرسة الاعدادية ، باللون الأسود ، ومبطعـــة بـــأحمر أجرب والرسم واللون خاليان من أى لمسة فنية .

حكايات رجب سعد السيد العلمية

تتصدر كتاب رجب سعد السيد ، كنوز البحر ، عبارة حكايات علمية ، ويحوى خمس حكايات .

الحكاية الأولى " لقاء بالصدفة " عن نشأة الماء على الأرض ، والثانية والثالثة " الحيتان والدلافين " و " ليلة أخرى مع الحيتان والدلافين " وكيف اضطرهما الظروف المناخية ، للانتقال من الحياة على الأرض إلى الحياة فى البحر . وكيف تحورت أجسادها لتلائم البيئة الجديدة . وعن ذكائها وما اكتشفه العلماء من قدراتها على الغوص فى الأعماق المظلمة من المحيطات ، وكذا تقبلها للتعلم . والحكاية الرابعة " حكاية اللؤلؤة والمحارة " عن فوائد القواقع ، وعن كيفية تكون اللؤلؤ . والحكاية الخامسة " يوم الطحالب " عن نشأة الطحالب ، وأهميتها كغذاء للكائنات البحرية ، والأمل فى استخدامها كغذاء للإنسان ، ولما يتغذى عليه الإنسان ، حيث تحوي كثيرا من المعادن والفيتامينات ، وتفيد فى مقاومة مرض السرطان .

والراوى فى هذه الحكايات ، التزم عرض المادة العلمية التى تحيط بالظاهرة الطبيعية . وإذا كان اجتهاد صنع الله إبراهيم موجه فى الأساس إلى تصوير ما يدور داخل الظاهرة ، فإن جهد رجب سعد السيد ، هو فى كيفية تقديم الظاهرة .

تبدأ الحكايات ، بوجود الراوى فى مخيم ترفيهي على شاطئ البحر ، يجتمع رواده من الكبار والصغار للسمر ، وكان طبيعيا أن يدور بعض الحديث عن البحر ، ويقول أحد الرواد الكبار للراوى فى الحكاية الأولى : " أعرض عليك خلافا وقع بين بعض الزملاء ، كنا نتحدث عن البحر بالأمس ، فاختلفنا حول مصدر مائه ، من أين جاء ؟ .. البعض يقول : أنه من باطن الأرض ، والبعض الآخر يرى أنه من تجمع مياه الأمطار ، فلعلك تقول لنا : ما هو المصدر الحقيقى لمياه البحر ؟! " ص ٣ .

وينجذب المستمعون إليه وهى يحكى كيف امتلأت البحار والمحيطات بالماء ، عندما

برد سطح الأرض ، وتشققت الصخور ، وخرج الماء المحبوس وتبخر وسقط مطـــرا ، يبرد سطح الأرض أكثر .. وهكذا دواليك ، حتى استقر الحال على ما نراه الآن .

ويستهل الراوى حكايته الثانية بلهو الأولاد والبنات على الشاطئ : " وقد فوجـئ الأولاد والبنات أثناء أعمال الحفر واللهو ، بظهور أجزاء غريبة من عظـــام لا تـــزال عالقة بها آثار من اللحم ،وكان ذلك كفيلا بإثارة ذعرهم ، فـــتركوا أدوات الحفـــر واللهو ، وهرولوا عائدين إلى إدارة المخيم " ص ٩ .

يا له من استهلال .. يقود إلى الحديث ، لكشف اللثام عما وجـــده الأطفـــال .. ويستطرد الراوى وقد استقطب انتباههم ، فى الكلام عن نشأة الحيتان والدلافين .

ونظراً لكثرة ما يود الراوي أن يقوله ، يتبع هذه الحكاية بأخرى ، يتحدث فيـــها عن أنواع الدلافين والحيتان ، وما تستطيع اكتسابه من مهارة ، خاصة ما تقوم به مـــن حركات ، كالقفز فى الهواء ، والشقلبة : " فيقف الحوت على رأسه فى الماء وذيلـــه فى الهواء ، ثم يترك زعنفته الذيلية الكبيرة تسقط فوق سطح الماء محدثة دويـــا هـــائلا ، وحاول هؤلاء العلماء أن يجدوا تفسيراً مناسبا لهذه الحركة ، فلم يتوصلوا إلا إلى أنهـــا تلبية لحاجة عاطفية عند الحوت ، وليس لحاجة مادية مثل الطعام ، ، إن الحيتان ترضـــى نفسها فقط ! " ص ١٧ .

وفى الحكاية الرابعة ، يجئ أحد الأصدقاء إلى الراوى ، يحمل فى يديه مجموعة مـــن القواقع والمحار ، جمعها فى جولة له على الشاطئ . فيدفعه هذا ليقص عن اللؤلؤ قديما ، وعن تفسير العلماء حديثا لنشأة اللؤلؤ . " يدخل جسم غريـــب إلى جســـم المحـــارة الرخو، فيلهب أغشيتها ويضايقها ، فتعمل على التخلص من هذا الجســـم الغريـــب والآلام التى يسببها لها " ص ٢٩ ثم : " تبدأ الخلايا الموجودة فى البُرُنس فى إفراز مـــادة لينة ، لونها أبيض فضى ، تحيط بالجسم الغريب فيتوقف الألم الذى تشعر به المحـــارة ، وحين تجف هذه المادة ، تكون اللؤلؤة قد بدأت فى التكون ، وبعد ثـــلاث أو أربـــع سنوات تكون قد اكتملت " ص ٣٠ .

وفى الحكاية الخامسة ، ثار البحر فى بداية النهار ، مع أنهم فى فصل الصيـــف ، ولا تتبدل أحوال البحر هكذا ، إلا فى الشتاء ، فيكون هذا مدخلاً مناســـبا للحكـــى : " وفوجئنا أن خط المياه المواجه للمخيم مكدس بأكوام من الطحالب التى كانت تغطى سطح الماء ، وتقذف بها الأمواج إلى الرمال المبللة " ص ٣١ .

وقضى المخيمون يومهم فى جمع الطحالب التى احتلت الشاطئ " وأطلقنـــا عليـــه (يوم الطحالب) ، فهل كان ثمة دافع أقوى من ذلك لأن أتحدث إلى أصدقـــائى ، فى

حلقة المساء ، عن ذلك (العدو) الذى أفسد علينا متعتنا وجعلنا نخسر نهاراً كاملاً؟." ص ٣٢ .

وهذه الحكايات ، ذات الراوي الواحد ، تثير لدى المتلقى :

- الدهشة ، عندما يعرف الأسرار الدفينة ، والقدرة العجيبة ، للنباتات والحيوانات للتحايل على الحياة . وهو الذى كثيرا ما رآها ، وما طاف بذهنه شئ من ذلك .
- المتعة ، من تكامل المعرفة ، فالمؤلف ، وهو باحث فى معهد علوم البحار بالاسكندرية ، يعرف مادته التى يعالجها جيدا ، وهو لا يكتفى بالحقائق العلمية ، لكنه يتطرق إلى الأساطير ، و فكرة الإنسان عنها قديما ، وما توصل إليه حديثاً .

ولقد خلت الحكايات من أية حبكة ، أو سبك لمادتها فى إطار خاص بها ، واجتهد المؤلف ليثير انتباه القارئ ، ليحكى بدلا أن يحكي ليثير انتباهه .

ولقد صدر هذا الكتاب عن دار المعارف عام ١٩٩٨ ويقع فى ٤٢ صفحة من القطع الكبير ، وبه رسوم فوتوغرافية للغواصين والأسماك والشعب المرجانية والحوت والدلفين والأسماك واللآلئ والطحالب . وليست به رسوم لفنانين عن حال المخيم المتخيل ، وما شابه من نشاط استدعي الحكى .

تهدى المؤلفة كتابها " حكايات لنور القلب " ، " إلى كل من فقدوا البصر وأعطاهم الله نور البصيرة .. وهدوء النفس وعوضهم الله بباقى الحواس ، ما جعلهم يعطوننا ما لا نستطيع أن نعطيه لهم " .

وتقول فى تصديرها للكتاب : " كتبت هذه المجموعة من القصص للمكفوفين أصحاب القلوب المليئة بالنور الحكمة .. كتبتها لتطبع بطريقة برايل . كتبتها وكل منها تعتمد فى بنائها الدرامى على البطل أو البطلة الذين كف بصرهم وأصبحت لديهم حواس أخرى قوية . كتبتها معتمدة على حواس : السمع واللمس والشم والتذوق " ص ٦ . المؤلفة تفترض أن المكفوفين ، من طينة غريبة عن البشر ، فهم أصحاب قلوب مليئة بالنور والحكمة أي أنهم ليسوا مثل باقى البشر ، فيهم الصالح والطالح . وليس معنى اكتساب إحدى حواسهم ، رهافة أو حدة لتعوض نقص حاسة البصر ، أن يعطيهم ذلك امتيازا خاصا.

وإلى الحكايات ، التى تسميها فى العنوان كذلك ، وتسميها قصصاً فى الإهداء وفى التصدير .

فى الحكاية الأولى " زينب تنقذ المدينة " والتى ذكرت المؤلفة فى فهرس الكتاب أنها عن حاسة الشم ، وهكذا تفعل أمام كل حكاية ، فتاة صغيرة ، تذهب مع أهلها إلى مصيف الإسكندرية . ولم تنم لتفكيرها فيما سوف تفعله غدا على الشاطئ .

وتشم رائحة غريبة ، وتحاول تتبع مصدرها وتصرخ فيستيقظ الوالدان ، وطلب والدها المطافئ ، وتتم السيطرة على الحريق .

استغرقت هذه الحكاية ثلاث صفحات، نصفها ، فى بيان كيف أصيبت زينب بالعمى ، ومعلومات عنها مثل " وكبرت زينب والتحقت بمعهد النور والأمل واستطاعت أن تتعلم القراءة والكتابة بسرعة ، ثم حصلت على الشهادة الابتدائية ثم الاعدادية " ص ٨ .

تزيد لا يخدم الحدث الرئيسي فى الحكاية وهو الحريق .. ورهافة حاسة الشم ، التى اكتشفته ، والحكاية تبدأ حقا من : " ونام الجميع واستغرقوا فى النوم بعد التعب الشديد ، ولكن زينب لم تستغرق فى النوم تماما لفرحتها بالمجئ إلى الاسكندرية " ص ١٠ .

وتنتهي الحكاية بخطابة :

" فقال والد زينب لهم :

لابد من مكافأة المنقذ قبل معاقبة المتسبب .. إن زينب التي فقدت بصرها وهي صغيرة ، استطاعت بحاسة الشم القوية أن تنقذ المدينة ، من حريق محقق " ص ١١ .
أو لم نعرف أنها فقدت بصرها وهي صغيرة ، في البداية ، وألم نعايشها وهي تصرخ بعد أن شمت الرائحة .. ؟! وتنتهي الحكاية بـ :
" وشمت رائحة الحريق وأنقذت كل المصريين " ص ١١ .
هكذا .. كل المصريين ؟!
وفي حكاية " هنية وصحن المهلبية "-حاسة التذوق .
مبصر تزوج كفيفة ، وصنعا مهلبية . ذاقتها الزوجة قبل حضور الضيوف ، فوجدت زوجها ، قد وضع ملحاً بدلاً من السكر ، فدلقتها وصنعت غيرها .
أين السبك في هذه الحكاية .. ؟! أي إنسان عادى يستطيع أن يتذوق ويفرق بين السكر والملح .
وصفحة ونصف أيضا عن هنية التي تعلمت العزف على الكمان وطهو الطعام وعن اشتراكها في أوركسترا النور والأمل .. وألا يحق لنا أن نسأل : ما علاقة العزف على الكمان .. بتذوق طبق من المهلبية ؟! .وفي حكاية " على مرشد " - حاسة الشم، تقول الراوية عن الشخصية الرئيسية " وظهر الذكاء الفطرى واضحا في كل تصرفات على حتى أنه أصبح يساعد أمه في خبز وطهو الطعام ، وأصبحت حاسته القوية للشم واللمس هي دليل نضج الطعام أو الخبز " ص ٢٢ .
هل من علامات الذكاء الفطرى .. المساعدة في طهو الطعام وإذا فوتنا هذا فالشم واللمس ليسا دليلى نضج الطعام .. لكن يمكنهما أن يدلانا على نضج الطعام ..
وطفلنا على ، سبح مرة في البحر ، فشم رائحة نفط ،واتضح فيما بعد أن الموقع ملئ بالنفط ، فبدأ المسئولون في استخراجه . حبكة معقولة ، فليس أي إنسان بقادر على شم تلك الرائحة بين الأمواج ، لكن لماذا المقدمة الطويلة ، كالعادة ، عن كيفية إصابة الطفل بالعمى ، ولماذا المبالغة في النهاية .
" ولما وصل إلى الوزير مد يده ليصافحه وقال له الوزير :
- نحن نريد أن نرسلك إلى الخارج ربما وجدنا علاجا لعينيك ، ولكن " على " قال بشجاعة وثقة بالنفس :
- أشكرك يا معالى الوزير فقد أعطاني الله حواس كثيرة جعلتني أرشدكم إلى مكان البترول ، منها حاسة الشم القوية ، وحاستي باتجاه الريح ، وأكتفى بهذه الحواس وأحمد الله عليها " . ص ٢٧ .
ياله من طفل يرفض فرصة جاءته على طبق من فضة لعلاج عينيه .. !! وياالإسم الأسوء سمعة من المخبر ليتة كان عليا المستكشف .. أو أي على آخر ، غير المرشد..؟! . وفي حكاية " طريق النجاح "- اللمس ، أولاد يلعبون . يغمضون عيونهم ، ويتعرفون على الأشياء من ملمسها . بينهم ولد كفيف ، هو محمود . يقول له عبد الرحمن : " أشعر دائما يا محمود أنك نجحت في البيت وفي المدرسة أنك تستخدم عقلك لكي يعوضك عن العينين " ص ٣٠ .

طيب يا سيدي ، شكرا .

وينهي محمود القصة بقوله :

" إن الله يضع في حاسة اللمس التي عندي آلاف القدرات التي في حاسة اللمس التي عندك ، لأن الله عوضني عن عيني بحواسي الأخرى . قال أحمد :

– هذا هو طريق النجاح .

قال محمود بل هو طريق النور عن فقد بصره " ص ٣١ .

هل يتم هذا مع كل من فقد بصره .. ؟! ..

على أي حال ، شكرا لله على نعمائه .. لكن أين الحكاية في كل هذا البيانات التي يدلي بها الأولاد .. ؟!

وفي حكاية " سلامة ماما "-حاسة السمع ، طفل يفتقد صوت مشي أمه في الصباح، فيقلق . ذهب إليها فوجدها لم تغادر سريرها لمرضها . أيقظ أخويه اللذين اتصلا بالطبيب ليعودها .

حكاية ذات حبكة متقنة فالطفل الذي اعتاد في الصباح أن يصحو على إيقاع شبشب أمه ، كان طبيعيا أن يفتقده ، عندما مرضت . لكن الراوية تأبى إلا أن تنال من متعتنا ، وتصرح على لسان الأم بما عرفناه توا من افتقاده لخطواتها :

" وقالت الأم للطبيب :

– بارك الله في طارق فقد تنبه لعدم استيقاظي من النوم لقوة سمعه وافتقاده لخطواتي ، ثم جاء إلي واكتشف ارتفاع حرارتي باللمس ، ولم ينس الكمادات الباردة والكولونيا وأثرها في تخفيض درجة الحرارة " ص ٣٤ .

وكأن الحرارة بالنسبة، لعدم الكفيف يمكن إدراكها بغير اللمس . ودعنا من الترمومتر الآن . وتقرر الراوية ، في ختام حكايتها :

" وهكذا استطاع الصغير طارق الذي ولد كفيفا أن ينقذ ماما من أي تطور مرضي خطير ،وكان السبب في سلامة ماما " ص ٣٤ .

والله العظيم عرفنا .. الرحمة ..

وفي حكاية " الغشاش " – حاستا الشم واللمس ، يقع أحمد مدرس اللغة العربية في حب فاطمة الكفيفة عازفة الكمان ، وكانت أداة تواصله معها إهداء الورد إليها دوما، ويأتي عبد الحميد ، ويقدم وردة صناعية لا تذبل ، توددا لفاطمة . وكان يكفي أن تلمس فاطمة الوردة فتكتشف أنها صناعية ، وبالتالي تعرف ونعرف معها زيف حبه، وأنه مصطنع كوردته .. لكن المؤلفة بدلا من ذلك .. سطرت صفحة ونصفا عن عبد الحميد الغشاش وعن وردته الصناعية ، وعن خيانته لزميلتها عفاف .. و .. و ..

وبعدت المؤلفة عن تعميق حبكة كان جمالها بين يديها ، وأمطرتنا بمعلومات عن أحمد الذي يستعد للسفر إلى الخارج ، ليحصل على الماجستير في الأدب المقارن .

كل هذا لا يضيف شيئا لحكاية الحب ، والتعارف الذي تم عن طريق لمس الورد الطبيعي وشم شذاه الطيب ، وماذا يعنيه لمس وردة صناعية ، عديمة الشذا .

وفي الحكاية الأخيرة " حينما أصبحت ماما معلمة " – اللمس ، طفلة عمياء ،

أصيبت أمها بالعمى أيضا ، لكن بعد سبعة وأربعين عاما من عمرها ، وتصـــاب الأم بالإحباط ، وتلزم حجرتها لكن الطفلة تفكر فى إخراج أمها من أزمتها فتقول لها :

" على فكرة ياماما أنا آخر مرة أقدر أساعدك لأنني لم أقض سوى خمسة أعوام وأنا أرى ، أما الآن فقد نسيت كثيرا مما كنت أراه " ص ٤٤ .

فى إشارة واضحة للأم ، التى تكبرها كثيرا ، وتذكر الأشياء أكثر منها ، وبـــالطبع تكون أقدر على الحركة فتنتبه الأم فعلا وترد عليها :

" ياه .. يا هناء يا حبيبتي ده أنا طماعة جدا يعني أنا متضايقة لفقدي بصرى مـــع أنني تمتعت بعيني ورؤيتي ، وتعلمت كل شئ لمدة سبعة وأربعين عاما .. يا ابنتى الجميلة رعاك الله فقد أخرجتنى من أزمتى بهذه الجملة البسيطة " ص ٤٤ .

وتروح الطفلة ، تخبرها كيف تسلك ..

وهكذا ، كما فعلت الأم مع ابنتها سابقا، أصبحت البنت معلمة لأمها ..

حكاية جميلة .. تتبادل البنت مع أمها دوريهما .. تنال منها العواطف الزائدة كمــا فى العبارة السابقة " يا ابنتى الجميلة رعاك اله فقد أخرجتني من أزمتى " .

أو التصريح بما نعلمه " أمي الحبيبة إن الله كان رحيما بنا جدا ، فقد اســـتمتعت ببصرى ٥ أعوام ثم أعطاني عبقرية الذين فقدوا أبصارهم.. وفقدت أنت بصرك بعـــد ٤٧ عاما أى لديك رصيد كبير يمكنك أن ترسمى " ص ٤٥ .

وكأن المسألة آلية ، من يفقد بصره .. يكتسب فورا عبقرية من فقدوا أبصــارهم (المفترضة) .. وما هي تلك العبقرية يا ترى .. ؟!

ويستمر التصريح الممزوج بالعاطفة الزائدة : " هناء يا حبيبتى .. إن الله يرد لى مـا فعلته معك أنك الآن معلمتي وسوف أكون تلميذة نجيبة " ص٤٥ .

• • •

ثماني حكايات ، الشخصية الرئيسية فيها فتى أعمى أو فتاة كذلك . والمفــروض فى الحكاية أن تقدم لمحة ، حادثة، موقفا ، شخصية ، دون أن يستدعي ذلك ، اســـتطرادا روائيا ، عن تاريخ حياة الشخصية ، إلا بما يخدم الموقف أو اللمحة .

وانطلقت الحكايات من رؤية مسبقة ، أن المكفوفين فور إصابتهم ، قد امتلكــــوا حدة فى حواس أخرى كالشم والتذوق واللمس والسمع ، وقد أصبحوا شـــخصيات ممتازة وعبقرية لا تخطئ .

تأتي الحدة والرهافة فى إحدى الحواس ، خلال احتكاكهم وتعايشهم مع مجتمعاتهم .. لكنهم فى النهاية أشخاص عاديون ، يجرى عليهم ما يجرى علي سائر الناس .

وليت الحكايات أغفلت ذكر " النور والأمل " ، تعلم فى معهد النـــور والأمــل ، أوركسترا النور والأمل ، فلسنا بصدد عمل دعاية لتلك المؤسسة مع أهميتها ولكننـــا بصدد حكايات لإمتاع القارئ .

ولقد صدر هذا الكتاب عن مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ، وهو من الكتـــب الفـــائزة بجائزة سوزان مبارك لأدب الأطفال . ويقع فى ٤٥ صفحة من القطع فوق المتوســـط ، ويبدأ القص من الصفحة السادسة ، وبه أحد عشر رسما ، كل منـــها علـــى صفحـــة

كاملة، غير الرسوم الصغيرة فى جوانب بعض الصفحات ، وهي للفنان محسن رفعت، ولقد وفق فى ألوانه الدافئة ، البنى بدرجاته ، وأحمر دم الغزال والبنفسجي بدرجاتهما المختلفة ، وفى بعض الرسوم دخل اللونان الأصفر والأخضر ، فزادا من بهجتها .. واللوحات والرسوم الصغيرة ، مستقاة من الحكايات ، وفى نفس الوقت تحث المتلقى لتأمل جمالياتها التشكيلية ، ومفرداتها الشعبية التى عبرت عنها.. كالفرن فى الفلاحين والبيوت البسيطة والنخيل ووجوه الأطفال ، وتشبه رسوم الفنان الشعبى على بيوت الحجاج حين العودة من الحج ، وفى المناسبات المختلفة كالسبوع والختان .. لذلك جاءت زخرفتها عفوية بألوان تكاد تكون صريحة ، وأخاذة .. وكان الفنان موفقا فى عمل فهرس غير تقليدى عن الحكايات ، برسم صغير قبالة عنوان كل حكاية ، ووددت لو لم تكتب المؤلفة قبالة كل حكاية أنها عن حاسة كذا ، وأن تترك ذلك للقارئ لاستشفافه من الحكاية .

روايتان عالميتان

الولد الأسود

نحن أمام رواية سيرة ذاتية عن طفولة وصبى الكاتب الأمريكي الأسود ريتشارد رايت ، تدور حوادثها فى الجنوب الأمريكي فى الربع الأول من القرن الماضى ، حيث العنصرية على أشدها ، والعنف ، من قبل البيض تجاه السود .. وحيث الرحيل إلى الشمال ، الأخف وطأة أمل للكثير من الزنوج ، ويسرد الراوى ما مر به منذ كان عمره ست سنوات ، حتى بلغ التاسعة عشرة ، عندما نجح فى الذهاب إلى الشمال ليبدأ حياة جديدة .

ومع أن هذه الرواية ، مكتوبة للكبار ، إلا أن الصغار ، أقبلوا على قراءتها .

فما الذى جعلها تحوز إعجابهم ؟!

التعبير عن أفعال الصغار :

" وزحفت تحت المنزل ، واختبأت بين كومة من الحجارة ، ورقدت ساكناً كالكرة. يجب ألا تعثر على أمي ، وإلا ستجلدني لما فعلت . لقد كانت المسألة كلها حادثة ، لم يكن يدور بخاطري أن أشعل النار فى المنزل . كل ما كنت أريده هو رؤية الستائر وهى تحترق . لم يدر بخاطرى أيضا أنني فى هذه اللحظة بالذات أختبئ تحت منزل يحترق " ص ١٢ .

إنه طفل فى السادسة من عمره، وطافت بذهنة نزوة ، نفذها ، دون أن يدرك عواقبها ، وعصفت به مشاعر الخوف ، لأن الكبار لن يحاولوا تفهم ما جرى ، وكل ما ينتظره منهم هو العقاب ..

وعندما أحدثت القطة مواءً ، أقلق أبيه من نومه ، انفجر قائلا : اقتلوا هذه الملعونة ونفذ الطفل الأمر :

" كنت أدرك أنه لم يكن يعني أن أقتل القطة حقا ، ولكن كراهيتي الشديدة له حفزتني على أن أنفذ طلبه حرفياً .

وقلت لأخي :

– لقد طلب منا أن نقتل القطة .
– ولكنه لا يعني هذا .
– لقد طلب منا ذلك وسأطيعه .
– عندئذ سيشتد صياحها .
– لايمكنها الصياح إذا ما قتلتها .

وعارضني أخي قائلا :

– إنه لم يطلب منا قتلها .
– بل طلب منا ذلك ، وقد سمعته أنت " ص٢٢ .

إنه العناد الذى يمتلك الطفل ، عندما يفتقد الحب ، ويحس بالظلم ، أو يجابه بمعاملة غير لائقة . وشب طفلنا ، ودخل إلى مرحلة الصبى . ألحق بمدرسة الكنيسة :

" وكان على أن أتغلب على عادة السب والألفاظ البذيئة ، ولكنى لم أتمكن من

ذلك قبل أن أنجح فى جعل نصف عدد التلاميذ يصعقون عند سماعهم الألفاظ التى كانت تخرج من فمى " ص ١٤٤ .

إنها شقاوة ولد ، لعب فى الشارع وسمع تلك الألفاظ ، ورددها مع شلته . وما زال يحتفظ بأخلاق الشلة (العصابة) ، رغم التحاقه بالمدرسة .

ألقى ولد يجلس أمامه فى الفصل قشر بندق تحت قدميه . وظنت المدرسة أن ريتشارد هو الفاعل . صاحت المدرسة وهي خالته :

" ريتشارد ، قم واقفا .

ولم أتحرك وضغطت بأصابعي على الكتاب ، وأحسست أن عيون التلاميذ ترقبنى وكنت أعلم أني غير مسئول عن قشر البندق ، وأنى عبرت لها عن أسفى لأنى ناديتها بخالتى . وكنت أتوقع أن يبتكر الولد الجالس أمامى كذبة ما لينقذني من هذه الورطة ، لأنه هو المذنب الحقيقى " ص ١٤٥ .

ولكن الولد خذله ، وضربته المدرسة بمسطرة طويلة على يديه ورجليه :

" ولم أشأ أن أبوح باسم الولد ، لأنه لم يسبق لى أن كسرت (قانون العصابة) ، وانتظرت أن يتدخل هو لإنقاذى . وكنت فى الماضى أتقبل العقاب على جرم لم أرتكبه فى الشلل التى كنت عضوا بها ، أما هنا وفى مدرسة دينية فقد ظل الولد صامتا ، وأخيرا قلت : لا أعلم من هو المسئول " ص ١٤٦ .

وصبينا الذى لم يعتد النفاق الاجتماعي ، يتصرف ببراءة ، لا يتقبلها آخرون .

أيقظ الولد خاله من النوم وقال له :

" خالى توم أرجوك أن تحضر معي على الفور لأن جدى مات .

ونظر إلي طويلا ، ثم قال بهدوء :

– إنك حقا مغفل ، ألا تعلم أن هذه ليست الطريقة المثلي لإبلاغى مثل هذا النبأ، إنه أبى " ص ١٩٦ .

ويعجب الولد من هذا الرد :

" وعدت أدراجي إلى المنزل وأنا أتساءل عن حظى العاثر الذى لا يجعلنى أوفق فى أية مهمة أقوم بها . وكل حركة أقوم بها يبدو أنها تثير عداوة الناس ، ولم أتمكن حتى الآن من معرفة طريقة مخاطبة الآخرين ، فمثلا ، أنا لم أقصد أن أصدم خالى توم ، وبرغم ذلك فإن غضبه منى كان يبدو وكأنه يفوق حزنه علي أبيه " ص ١٩٧ .

ولقد تكرر ذلك فى مواقف مختلفة ، فلم يدرك الصبى بعد ، ما تواضع عليه الناس فى التعامل والتخاطب فى المناسبات الاجتماعية المختلفة .

ولم تزل البراءة ، وكذا العناد ، تأخذان بنفس الصبي ، وقد أوشك على التخرج من المدرسة . بعد أن نجح فى امتحان الصف التاسع ، طلبوا منه أن يعد تقريرا ليلقيه فى احتفال نهاية العام . وأعده بالفعل ، ذاكرا أوجه التقصير التى رآها . لكن الناظر له رأي أخر ، يتجاوز عن التقصير ويجامل البيض الحاضرين للاحتفال ، بل اتضح أن تكليف تلميذ بإعداد تقرير لإلقائه هو مسألة شكلية . وأن الطالب المختار فى النهاية يلقى التقرير الذى أعده الناظر .

قال الخال توم لريتشارد :

" – إن تقرير الناظر أحسن من تقريرك

– أنا لا أشك فى هذا على الإطلاق ، ولكن لماذا طلبوا منى أن أكتب تقريرا إذن،

إذا كانوا لا يريدون منى أن أقرأه ؟
– هل تسمح لى بتصحيح بعد النقاط فى تقريرك ؟
– كلا يا سيدي .
– اسمع يا ريتشارد إن المسألة تتعلق بمستقبلك ..
– اسمع يا خالى ، أرجوك – لا تهتم بهذه المسألة واتركها لى .. " ص ٢٤٢ .

إنه الاحساس بالذات ، وقد أوشك على البلوغ ، ويستمر فى تحديه ، متخطيا ما صادفه من عقبات ، فهو مثلا يريد أن يلقى تقريره ، وقد ارتدي بنطلونا طويلا ، ويتخلي عن بنطلونه القصير ، فيقترض ليشترى ما يريد ، ويلقى تقريره غير عابئ بتهديد الناظر ، أن يجعله يرسب بعد أن نجح ، وغيرعابئ بترغيبه أن يجعله مدرسا فى المدرسة بعد التخرج ، وهو الذى يعاني من البحث عن عمل .

التعبير عن مشاعر الصغار :

ترى إلي أين تتجه مشاعر الصغار .. ؟!

" كان هناك الإحساس بالدهشة حين شاهدت – لأول مرة – قطيعا من الخيول البرية ، المرقطة باللونين الأبيض والأسود ، تخب على الطريق المترب وسط زوبعة من الغبار .

وكان هناك إحساس الغبطة الذى استولى عليَّ حين شاهدت خطوطا مستقيمة طويلة من الخضراوات الحمراء والخضراء تمتد تحت الشمس حتى الأفق المثير " ص ١٦ .

واضح من الفقرة السابقة ، أن مشاعر الصغير انجذبت إلي لون الخيول البرية وإلى المنظر العام لها وهى تخب وسط الغبار ، كما جذبتها ألوان الخضراوات تحت أشعة الشمس .

وعندما قصت عليه " إيلا " الساكنة عند جدته قصة ، عبر عن شعوره فقال:

" وأخذت تقص عليَّ كيف أن ذا اللحية الزرقاء خدع زوجاته حتى تزوجهن ، وكيف أحبهن ثم قتلهن ، وعلقهن من شعورهن فى دولاب مظلم ، وأحسست بالدنيا حولى تعج بالحياة وبالمخلوقات السحرية ، وزاد عمق شعوري هذا ، وكنت أقاطعها لأستفهم عن بعض التفصيلات ، وعندما قاربت من نهاية روايتها ، وعندما وصل اهتمامي إلي الذروة ظهرت جدتى فى الفناء وصاحت :

– كفى عن هذا أيتها الشريرة ، لا أريد مثل هذه الموضوعات فى منزلى ! " ص ٦٢ .

ويعلق الصبى على الحادثة السابقة بقوله :

" لقد أثرت فى هذه القصة ، حتى أنى لم أهتم لتهديدات أمى وجدتى ، وكانا يظنان أن إصراري هذا ليس سوى سذاجة سرعان ما تمر ، فلم يدر بخلدهما أن القصة التى روتها لي " إيلا " وما تحويه من خداع وقتل ، كان لها أثر عاطفي علي . وشعرت أنى تذوقت الحياة ، ولن أتوقف عن النهل من مناهلها ، بأية طريقة كانت " ص ٦٣ .

انجذب الطفل إلي جماليات القصة .. المغامرة ، التشويق ، العالم المتخيل ، الذى وجد فيه عنفا مثل الذى يعايشه السود فى مجتمع البيض ، لذلك لم يلتفت إلي نهي الجدة عن قراءة مثل هذه القصص ، التى لا تتفق مع الأخلاق التى تحرص عليها فى بيتها ، وأخذ الصبى يسرق القصص من حجرة " أيلا " ويقرؤها خلسة ..

ويقول الصبي واصفا مشاعره بهذا الخصوص " وكنت أحب قراءة مثل هذه القصص ، قصص الرعب والإثارة . لم أكن قد ربيت لنفسى ذوقا معينا فى القراءة ، وكان كل ما هو مثير يجذبنى " ص ١٧٧ .

ويقول فى موضع آخر :

" وكنت بمجرد عودتي إلى المنزل فى المساء أغلق باب حجرتى ورائى وأروى ظمئى للقراءة عن رجال غرباء وأحداث غريبة تجرى فى بلاد بعيدة . وأحسست لأول مرة بالحياة من حولى ، الحياة الحديثة ، حياة المدن الكبيرة ، وأحببت هذه الحياة. وبرغم أن ما كنت أقرؤه كان من نسج الخيال إلا أنى تقبلته علي أنه حقيقة لا جدال فيها ، لأني كنت أريد ذلك ، وكنت أتوق إلي حياة أخرى غير التى أحياها ، وإلي نظام جديد للحياة ، ووسعت هذه القصص الرخيصة من أفقى ، وكانت بمثابة البوابة التى سأخترقها لأصل إلي العالم " ص ١٧٨ .

يفعل هذا ، وهو الذى سبق أن أفصح عن هويته ، دون أن يصغي له أحد :

" وكما قلت كانت جدتى تصر علي اتباع التعاليم الدينية فى المنزل ، فكنا نقيم الصلوات عند الفجر وعند الغروب ، وعند الإفطار ، وعند العشاء ، وكانت هذه الصلوات يتبعها عادة موعظة يلقيها أحد أفراد العائلة . وكان الجميع يعتقد أنى أؤدى صلاتى قبل أن آوى إلي الفراش ، ولكن فى الواقع كنت أهرب من كل هذه الواجبات الدينية ، كلما سنحت لى الفرصة متعللا بالاستذكار .

ولم يكن أحد يصدقني فيما أقول ، ولكن الجميع كانوا يتقبلون أعذارى حسما لأية منازعات معى " ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

ومشاعر الصغير الذى تنجذب نحو الجمال ، ولا تنجذب نحو الأخلاقى ، هي مشاعر إنسانية ، يقول صديقه "جريجز" :

" اسمع يا ديك أنا أعتبرك أخا لى ، وأعاملك علي هذا الأساس ، إنك تعامل البيض كما لو كانوا ليسوا بيضا . وهم يدركون هذا وأجبت :

– يا إلهي هل يجب أن أكون عبدا لهم ؟ " ص ٢٥٢ .

ويعلق ريتشارد:

" إن ما يقوله جريجز صحيح ، ولكنه غير ممكن ، فلن أستطيع أن أفكر أو أدبر طيلة الوقت . قد أتمكن من هذا لفترة قصيرة ، ولكنى لابد أننى سأنسى وأتصرف تصرفا إنسانيا ، دون ما رغبة فى أن أسئ إلي أحد ، بل لمجرد أنى سأنسى هذا الحاجز الصناعى بين الطبقات والأجناس . سأتصرف مع البيض والسود تصرفا واحداً ، لن اميز بينهم " ص ٢٥٣ .

قدم ريتشارد رايت روايته ، ببساطة ، خالية من أية تقنيات ، صعبة ، فالسرد يسير فى خط مستقيم ، والزمن متوال ، اللهم فى أحيان قليلة ، يتذكر الراوى حادثة ذات تأثير كبير ، كأنما ليؤكدها فى الوجدان ، وبطل الرواية صبى ، مما قرب النص إلي نفوس الصغار ، وليس معني البساطة ، أن الرواية خالية مع العمق ، علي العكس .. لقد غاص رايت فى قلب المشكل العنصرى ، وعبر عن أدق المشاعر . أنظر إلي المقطع السابق . حيث لا يريد البيض أن يُعاملوا كأنهم ليسوا بيضا .. أي ينبغي معاملتهم كسادة .. ما دامت السيادة مفترضة لهم ويقول صديقه جريجز :

" سمعت أحد الزنوج وكان مخمورا يقول :

– إن هؤلاء البيض ذوى الملابس الأنيقة ، لهم نفس رائحتى .
وتلفت حوله ليتأكد من أن ماقاله لم يصل إلى سمع واحد من البيض ، وضحكت على قوله هذا ، وواصلت النظر إلي الوجوه البيضاء التى تمر أمامى ، أما هو فقد أخفى فمه عندما ضحك ، حتى لا يبدو عليه السرور البالغ فى حضرة البيض " ص ٢٥٤ .
حتى المشاعر يجب إخفاؤها فى حضرة البيض .. !
والحوار فى الرواية ، يعبر عن شخصية الصغار ، الذين يحبون السؤال باستفاضة ، ولا تقنعهم الإجابة بسهولة . وهاهو أحد التلاميذ يحاوره :
" – أنت تعلم يا ريتشارد أننا جميعا قلقون عليك .
– قلقون ؟ لماذا ؟ ومن هم القلقون على ؟
– الجميع .
– لماذا .
– لأنك لم تحصل على الخلاص
وضحكت وقلت :
– أنا بخير
– لا تضحك يا ريتشارد . الأمر فى غاية الجدية .
– ولكنى بخير .
– اسمع يا ريتشارد ، أريد أن أكون صديقاً لك .
– أعتقد أننا بالفعل أصدقاء " .
ويستمر هكذا إلى آخر الصفحة رقم ١٥٧ والصفحة التى تليها .
وصديق آخر يحاوره :
" لا تستطيع أن تظل طوال النهار دون طعام .
– وماذا أفعل ؟
– مثلما أفعل أنا .
– وماذا تفعل أنت ؟
– أبيع الجرائد والصحف " ص ١٥٧ .
ويستمر الحوار طوال الصفحة التالية لها .
وقد صدرت هذه الرواية عن دار المعارف عام ١٩٦٨ وتقع فى ٣٥٦ صفحة من القطع المتوسط ، تتصدرها عبارة : قصة طفولة وشباب . وقامت بترجمتها : تماضر توفيق .

هاري بوتر وحجر الفيلسوف

ثار الجدل حول هذه الرواية ..

كثيرون رحبوا بالرواية ، لما تحفل به من خيال ينمي قدرة الأطفال علي التخيل وهاجم بعضهم الرواية ، لأنها تدور حول السحر مما يدفع الأولاد للإيمان بالخرافة .

لكى نتعرف علي حقيقة الرواية ، ينبغي أن نستعرضها أولا :

هاري بوتر ، طفل فى اللفة ، مقيد منذ مولده ، فى مدرسة خاصة بالسحر . مات أبواه الساحران ، حيث قتلهما ساحر يتبع السحر الأسود ، الشرير ، بينما الأبوان يتبعان السحر الخير الذى لا يؤذى أحدا . ويذهب مندوبون من المدرسة ويضعون الطفل عند عتبة خالته وزوجها ، ليتربى عندهما ،حتى يبلغ سن المدرسة . ويشب الصبى فى بيئة تكره السحر ، ولا تسمح بذكر شئ عن والديه ، ويقتران فى المعيشة ، مفضلين ابنهما المدلل عليه . وعندما يبلغ الحادية عشرة من عمره ، يأتي مندوب من المدرسة ويخبره بماهيته ، كي يلتحق بالمدرسة ، وأبلغه أنه سيكون له شأن عظيم فى عالم السحر .

وينتظم الولد فى دراسته ويتفوق فى لعبة رياضية ، ويتسبب فى حصول فريقه علي الكأس . وتقابل الولد عقبات ، يجتازها بمغامرات ، وينجح فى النهاية فى الوصول إلي قاتل أبويه ويتسبب فى القضاء عليه ، ويمنعه من الاستيلاء علي حجر الفلاسفة ، الذى يطيل العمر . وينتهي العام الدراسى ويذهب لقضاء إجازته عند خالته .

* * *

ونرى أن الأولاد أقبلوا علي هذه الرواية لشدة جاذبيتها أثناء القراءة .. فالأحداث كلها - تقريبا - تقع فى مدرسة لتعليم السحر ، من عدة طوابق ، تحيط بها غابة غامضة ، بها حيوان القنطور الأسطوري . وفى المدرسة أبواب مزينة بالصور التى يغادرها أصحابها - أحيانا - للزيارة ، وبها أشباح تحرس الأماكن الممنوع علي الأولاد ارتيادها . واللعبة الرياضية فى المدرسة تمارس باستخدام أيدي المكانس ، حيث يتمكن الأولاد من الطيران فى الهواء ومطاردة الكرات وإسقاطها فى الأطواق ، واستخدام أيدي المقشات ، يبعث فى النفس المخزون من عالم الحكايات الشعبية ، التى كانت فيها الساحرات تستخدم أيدي المقشات ، وكذا ليس ببعيد عن ذاكرة الأولاد استخدامهم لأيدي المقشات فى سن الرابعة أو الخامسة ، كحصان ، أو ما شابه .

وجعلت المؤلفة الأطفال فى المدرسة وبعض الأساتذة ، لا ينطقون اسم الساحر الشرير فولد مورت ، ويستعيضون عن ذلك بقولهم " الذى يجب ألا نذكر اسمه " كما نقول نحن عن شخص بغيض (اللي ما يسماش)

وهذا يستدعى من أعماق الذاكرة الشعبية ، الاعتقاد القديم أن بعض الكلمات لها قوة سحرية ، تسبب الأذى ، أو الخير .

وما زال الناس فى عصرنا هذا ، يتحاشون ذكر كلمة عفريت مثلا ، ويقولون بدلاً منها " بسم الله الرحمن الرحيم " ويتحاشون ذكر اسم مرض خبيث فيقولون " الله أكبر " فيفهم السامع ما هو المقصود ، وكأنهم بالكلمات المستعاضة ، يدفعون شر الكلمات الأصلية .

وما فعلته الكاتبة يقرب شخصيات الرواية من وجدان المتلقى ، فيتأثر بها أكثر ، وكذا تضفى عنصراً فكهاً ، يدفع إلي الابتسام .

وأحد الأشباح له قطة تساعده فى الحراسة ، والحجرة التى بها حجر الفلاسفة يحرسها كلب له عدة رؤوس .. لكن الموسيقى تجعله يغفو . والرسائل تأتي لأهل المدرسة عن طريق البوم . وقاطنو المدرسة يلبسون العباءات ..

والرواية حافلة بالمواقف الفكهة .. وهذا يحبب الأولاد فيما يقرأون .

هارى يعاتب خالته وزوجها لأنهما لم يذكرا له حقيقة موت والديه ، فى حضور مندوب المدرسة هاجريد :

" هتف هاري : ماذا ألم تقولا لي أنهما ماتا فى حادث سيارة ؟

هنا اشتد غضب هاجريد ووقف صارخا : حادث سيارة ؟ .. من قال هذا ؟ ألم يذكرا لك كيف مات والداك ؟ .. هذه فضيحة " ص ٥٢ .

لست فى حاجة إلي التعليق علي ما تبعته : هذه فضيحة .

وإلي موقف آخر ، عندما دخل نيفيل أحد التلاميذ فى المدرسة إلي قاعة وساقاه ملتصقان ويقفز مثل الأرنب ، مما أثار ضحك الجميع .

" سألته هيرميون : ماذا حدث

قال : إنه مالفوى قابلته خارج المكتبة وكان يبحث عن أحد للتمرين عليه .. وهكذا وجدنى ! "" ص ١٩٠ . واضح أنه يتمرن عـي استخدام إحدي الحيل السحرية .

وألا ترون معي خفة الدم فى هذه العبارة :

" كان الجو شديد الحرارة فى قاعة الامتحان الكبيرة .. وقد تسلموا أوراقا وأقلاماً مزودة بتعويذة ضد الغش " ص ٢٣٠ .

ولقد وفقت المؤلفة فى اختيار أسماء موسيقية ، تبعث فى النفس الرغبة فى الابتسام. اسم الشبح : فليش وقطته : الآنسه نوريس . الفتاة الدارسة : هيرميون . حارس الغابة : هاجريد . الكلب حارس حجر الفلاسفة : فيلافى .. وهكذا ..

كما نجحت المؤلفة فى خلق عالم ملئ بالعجائب ، مثير للدهشة . المغامرات التى قام بها تلاميذ المدرسة ، والمآزق التى وقعوا فيها ، وكيف تخلصوا منها . فهم يخرجون ليلا من المدرسة مخالفين التعليمات ، وكذا يتجولون فى طوابق المدرسة العليا غير مبالين بالخطر ، وقد تعرضوا لتبليغ الأشباح عنهم أحيانا ، وتفادوهم أحيانا أخرى وانغلقت الأبواب عليهم ، والسلالم الكثيرة ، والممرات ، والأقبية عرضتهم لأن يضلوا طريقهم.

والصراع بين الأولاد والخصام والمشاجرة ، والتنافس لإحراز السبق فى الدراسة وفى الرياضة . وأخفت المؤلفة ببراعة كثيراً من حقائق الرواية . فحجر الفلاسفة ، لم نسمع به إلا قرب انتهاء العمل . ولكى نكتشف حقيقة بعض الأساتذة ، مررنا بمفاجآت كثيرة .

ولا شك أن استثارة الخيال علي هذا النحو ، يدفع بالمخيلة إلي آفاق لا حدود لها.
وتقوم حبكة الرواية على تنازع طرفي الخير والشر للحصول علي حجر الفلاسفة الذى يحول أي معدن إلي ذهب ، وينتج أكسير الحياة الذى يطيل العمر . يقول هارى:

" ماذا .. ألا تفهمان .. لو حصل سناب علي الحجر وأعطاه لفولد مورت وعادا إلي هنا لن تكون هناك مدرسة .. سوف يقضي عليها تماما .. ويحولها إلي مدرسة للسحر الأسود .. وهكذا لن توجد المدرسة التى أفضل منها .. سوف يقتلنى كما قتل أبى وأمى " ص ٢٣٤ .

فهل بحصول فولد مورت علي الذهب ، يستطيع إغواء ذوى النفوس الضعيفة من الأساتذة لينتصر علي مدير المدرسة الأستاذ دمبلدور ومن معه ، أصحاب المبادئ الذى يعمل حسابهم الجميع .. استمع إلي هاجريد عندما اضطر إلي عمل السحر ، حين شعر بالضيق من فرنون زوج خالة هارى ، وجعل ذيل خنزير يخرج من خلف بنطلون ابنه ددلى .

" ونظر هاجريد إلي هاري وقال : سأكون شاكراً لك إذا لم تذكر شيئا عن قيامي بهذا العمل السحري فى هوجوورتس (مدرسة السحرة) فليس مسموحا لي بهذا " ص ٥٦ .

ربما ..
ويقول كويريل ، أحد الأساتذة ، الذى خضع لفولدمورت :
" أستطيع أن أرى الحجر .. لكن أين هو ؟ أريد أن أقدمه هدية لسيدى .. لقد علمني أنه لا شئ اسمه الخير والشر .. لكن هناك فقط القوة " ص ٢٤٦ .

فهذا الذي يؤمن بالقوة فقط ، يريد الحجر ليمتلك من أسبابها ، الذهب وأكسير الحياة لكن الأستاذ دمبلدور يدمر حجر الفلاسفة ، ويبلغنا رسالة : أنه ليس بالذهب وحده يحيا الانسان ويكون سعيدا .. لكن بالحب والانتماء ، وأن حياة الإنسان ليس بطولها ، ولكن بما يتم فيها من عمل يحقق ذاته ويسعد الآخرين .
وإذا كانت الرواية تدور فى جو سحرى ، فهى لا تحبذ الخرافة .
ها هو الأستاذ دمبلدور ، ينصح تلميذه هاري بالابتعاد عن المرآة السحرية ، التى لا تريك وجهك وتريك رغباتك الدفينة :

" هذه المرآة لن ترينا المعلومات ولا الحقيقة .. كثير من الرجال أصابهم الجنون .. ولم يعرفوا ، إذا كان ما تظهره هو حقيقي أم مستحيل . سوف تنقل المرآة غدا إلي مكان آخر .. لا تحاول البحث عنها .. لا تجرى وراء الأحلام وتنسى أن تعيش الحياة" ص ١٨٧ .

وحجر الفلاسفة ، الذى تتحدث عنه الرواية لم يأت من عمل السحر :
" نتج عن الدراسات القديمة للكيمياء .. حجر الفيلسوف وتقول الأساطير أن له قوة مدهشة .. فالحجر يحول أي معدن إلي ذهب .. وينتج أيضا أكسير الحياة ، والذى يجعل الانسان خالدا لا يموت " ص ١٩٢ .

و الرواية تنهي عن الخرافة صراحة ، يقول القنطور فيرتز ، الحيوان الأسطوري الذى نصفه الأعلي انسان ونصفه السفلي جسد حصان :
" تذكر أن قراءة النجوم قد تكون خاطئة أحيانا .. حتى لو كان من يقرؤها

قنطور" ص ٢٢٨ .

ويؤكد الأستاذ دمبلدور مقولته لهاري ، ألا يجرى وراء الأوهام :

" يسعدني أنك لم تعد تدور بحثا عن المرآة .اجتهد في عملك.إنك رائع " ص١٩٧

والرواية لا تدعو إلى استخدام السحر ، فعندما قابلت الأولاد عقبة لابد من حلها، ليصلوا إلى حجر الفلاسفة ، قالت هيرميون :

" إنها لغز يحتاج إلى عمل العقل وليس السحر .. لغز يحتاج إلى حل بالتفكير السليم " ص ٢٤٢ ، ويكافئها الأستاذ دمبلدور فيما بعد ، فيعطيها خمسين نقطة :

" لاستعمالها العقل في مواجهة النيران " ص ٢٥٣ .

والرواية تجسد بعض القيم ، فمن أجل مقاومة الشر ، نضطر أحيانا للتعاون مع من لا نحب ، فالقنطور الذى لا يحب أن يتعاون مع الإنسان ، أو يخبره بشئ ، يفعل ذلك :

" رد فيرتز : هل تعرف من هذا .. إنه بوتر .. كلما أسرع في مغادرة الغابة .. كان ذلك أفضل .. هل رأيت وحيد القرن .. ؟ .. ألم تفهم لماذا قتل ؟ .. ألم تخبرك النجوم بالسر ؟ .. سأكون ضد كل ما هو شرير في الغابة .. حتى لو تعاونت مع البشر .. إذا اضطررت لذلك ! " ص ٢٢٦ .

وقال دمبلدور :

" هناك شجاعة نحتاجها للوقوف في وجه الأعداء .. لكن ..نحتاج إلي أكثر منها للوقوف في وجه الأصدقاء " ص ٢٥٤ أي، لا نحرج أو نخجل من مواجهة من يكون علي خطأ ، لأنه صديقنا .

ويكافئ الأستاذ من تمسك برأيه وواجه أصدقاءه ، التلميذ نيفيل ، بعشر نقاط .

وتنفي الرواية مقولة عدم التدخل فيما لا يعينك ، وماذا إذا كان من لا يعنيني مهددا بالخطر .

" تعرض هارى لموقف يتعارض مع ما عاهد نفسه عليه .. وهو ألا يتدخل فيما لا يعينيه أبدا . في إحدى الليالي .. وأثناء عودته من المكتبة .. سمع صوتا باكيا صادرا من أحد الفصول فوقه .. واقترب منه هاري ليسمع صوت كويريل :

– لا .. لا .. ليس ثانية لو سمحت !

كان هناك من يهدده .. واقترب أكثر وسمعه يبكى ويقول :

– حسنا .. حسنا .

ثم خرج كويريل مسرعا .. باكيا ..حتى أنه لم ير هاري في طريقه .. ودخل هارى الحجرة ثم تذكر وعده لنفسه ، فتوقف ولكنه كان متأكدا أن سناب قد خرج من الباب الخلفى " ص ٢١٧ . لقد نجحت المؤلفة عن طريق السحر ، في خلق عالم عجائبي خاص ، وهو في الحقيقة ليس سحرا ، بقدر ما هو جو سحرى .. فهناك حديث عن تعويذات ووصفات سحرية .. مجرد حديث ، وهناك عصى سحرية ، فقط لتمكن التلاميذ من الطيران ، ليلعبوا لعبة مبتكرة " الكويدتش " لا يلعبها إلا السحرة.

وساند هذا الجو – الحيوانات الأسطورية ، والغابة المحيطة ، والإفادة من الذاكرة الشعبية – في منح الشخصيات إمكانات ، تفوق إمكانات الشخصيات العادية، تماما كما نرى في شريط للصور المتحركة ، فإمكانات الصورة في السرعة ، والمغامرة ،

والخروج من المأزق ، وبعث الدهشة ، تفتح أمام المؤلف آفاقاً لا حدود لهـــا للقـــول وبشكل مقنع فيما لو قامت به الشخصيات العادية ، محدودة السرعة ، وإنجاز الفعل .

وخصوصية هذا العالم ، مقصورة عليه فقط . ففي نهاية العام ، بعـــد الامتحـــان ، وكان علي الدارسين أن يعودوا إلي ذويهم :

" وكان عليهم الآن أن يعودوا إلي المدينة .. إلي الحياة العامة .. ويخلعوا عبـــاءات السحر ليرتدوا الملابس العادية .. وصدرت إليهم الأوامر ألا يقوموا بأي عمـــل مـــن أعمال السحر " ص ٢٥٥ .

أي أن السحر ، لعبة ، اتفقنا علي ممارستها في " مدرستنا الخاصة " ، أمـــا العـــالم الخارجي ، حياتنا العادية ، فهو خارج نطاق ممارساتنا .

وهذه الرواية من تأليف الكاتبة الانجليزية . جوان كـــاثلين رولينـــج ، وقـــامت بترجمتها رجاء عبد الله في ٢٥٥ صفحة من القطع المتوسط ، ونشرتها دار نهضة مصـــر في يوليو ٢٠٠٢ علي ورق جرائد ، ودون أي رسوم داخلية .

الجمال .. الجمال ..

سبق أن ذكرنا أن أدب الأطفال ، بدأ فى أواخر القرن ١٧ ، كصدى غير مباشر لألف ليلة وليلة . كما صادفت بعض الأعمال المكتوبة للكبار ، هوى فى نفوس الصغار ، وأقبلوا عليها ، مثل الحكايات الشعبية والأساطير ، ورحلات جاليفر ، والولد الأسود وغيرها .

بعدها ظهر مصطلح " أدب الأطفال " ودخل التربويون إلى الحلبة ، وطالبوا بتلقين الطفل الأخلاق الفاضلة ، وإعطائه جرعات من المعلومات . وشيئا فشيئا ، لم يعد هذا الأدب جزء من الأدب على إطلاقه ، يعني بالجمال ، وبالتقنية الفنية ، قدر ما يعني ببث الفضيلة وحشو الرأس بالمعلومات . وشمر كثيرون عن سواعدهم . قليل من المعلومات وبعض المواعظ ودبجوا الحكايات .. معلومات تاريخية ساذجة ، شذرات من الدين وأمطرونا بالقصص .

ساعد على ذلك ، اتساع هذا السوق وجدته ، وقلة كتاب الأطفال ، ونسوا فى غمرة إغداق المال عليهم من مجلات الأطفال المختلفة ، قيمة الجمال ، ومراعاة الشروط الفنية للعمل الأدبي .

ومؤخرا طالعنا مصطلح " ثقافة الطفل " ليشمل بجوار القصة ، أغراضاً أخرى ، منها :

- المقال القصصي ..
- سير المشاهير فى مختلف أوجه الحياة .
- التفكير العلمي وتبسيط العلوم .

وكان المأمول أن يذهب رجال الأخلاق والمعلومات ، إلى تلك المجالات ، ويتركوا القصة لأصحابها ، إلا أن ذلك – للأسف – لم يحدث . وكأني بهم يتساءلون : لماذا تحبكونها..هل يدرك الطفل التقنية الفنية .. وهل يأبه بالمعلومات فى القصة من عدمها .؟!.

إن التقنية تمنح العمل الفني جماله . ومشاعر الأطفال ذات طابع إنساني ، واهتمامه يتجه نحو الجميل ، وليس الأخلاقى . قد لا يدرك الطفل أدوات التقنية ، لكنه سينصرف عما لا يصادف هوى فى نفسه ، دون ذكر الأسباب . تماما كما يدير أحد مؤشر الراديو ، عندما لا تعجبه موسيقى مذاعة ، أو يعطى ظهره للوحة على حائط لم ينسجم لمرآها ، دون أن يعرف السبب .

والعمل الأدبي الذى يعني بتوصيل المعلومات ، سينصرف عنه الأطفال لافتقاره إلى الجمال .

" لسنا على حق عندما نسحب عن الوطن جماله .. ونحاصر الطفل بالهموم ونشعره بأننا نريده أن يكون جنديا ، وتلميذا مجتهداً ، ولا يكون طفلا يعجن الطين ويلعب بالألوان . إن الكاتب حر فى التعبير عن اعتراضه على الواقع الراهن وضيقه به .. ولكن أن يطلب من الطفل أن ينتقم له منه ، ويضع الوطن على كتفيه ثقلا وتجهما فقط ، فهذا يضيع مهمة الثقافة والتربية التى هي مساعدة الطفل على النهوض

والتفتح وتوسيع أفق شعوره " - أحمد أبو سعد - " الموقف العربي " العدد ٩٥ لسنة ١٩٧٩ ، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

هل نرغب فى كتابة قصة للأطفال تقدم الموعظة ، أم نكتب قصة تثير شغفهم ..؟!

إذا أردنا إثارة شغفهم فعلينا تقديم قصة ، بها من التصوير والخيال والصدق والتشويق ، ما يصب فى الشعور ، وليس تقديم قصة بها من المعلومات والإرشاد ما يصب فى التفسير . وعلينا أن نذكر أن فنونا كالموسيقى والرسم والنحت ، خالية من أى معلومات أو إرشادات ، ومع ذلك ، ترقى بالنفس ، وتسمو بالوجدان .

إن المتعة الجمالية ، تدفع للسلوك القويم ، وتثرى الوعي ، وتحفز للمعرفة .

ويا أيها الحريصون على بث الأخلاق الفاضلة ، وحشو الرأس بالمعلومات ..

رجاء ..

ابتعدوا .

إن من اعتاد نظره ، اللوحة الجميلة ، لن يقبل بشارع قذر ، أو بمقلب قمامة فى منور منزله .

إن من اعتادت أذناه ، الأنغام العذبة ، سيقشعر بدنه ، لو سمع سبابا أو بذاءة ، ولن تفلت من لسانه كلمة نابية .

إن من اعتاد جمال الوردة ، لن يخدش حياء أنثى ، أو يعتدى عليها بلفظ أو فعل .

إن من اعتاد صدق السلوك الإنساني - خيراً أو شرا - وحميمية فى الأعمال الأدبية الجيدة ، ستنأي نفسه ، عن انتقاص حق أحد ، أو الافتراء على من يختلف معه فى دين أو لون أو فكر .

إننا نريد أدب أطفال ، يكون جزءً من الأدب على إطلاقه ، يراعي نفس الشروط الفنية المستخدمة فى أدب الكبار ، ويبتكر ويبدع طرائق غير تقليدية فى القص . والفارق الوحيد هو عدم استخدام تقنيات صعبة ، مثل الاسترجاع والتقطيع ، والصراع النفسي ، أو الروى بضمائر مختلفة ، لأن الطفل ما زال يفتقد الخبرة بنفسه وبالحياة . وثقافته محدودة ، فلم تتراكم معارفه بعد .

وبخصوص المضمون .. هلا كف بعض الكتاب عن السذاجة التى يتناولونه بها ..؟!

- الشجاعة ، ليست مجرد المخاطرة فى موقف صعب .. لكن أن يتسع المفهوم ليشمل شجاعة إبداء الرأي ، وأن يختلف رأيك عن رأي الكبار ، آباء أو أساتذة ، فليس فى هذا عيب ، أو خروجا عن طاعتهم .
- الأمانة ، ليست مجرد رد وديعه عندك ، لكن الأمانة أن تبدى رأيك دون نفاق ، وأن تؤدى عملك بكل ما فى استطاعتك من إتقان.
- الانتماء ، ليس للأسرة ، أو الشلة ، فقط . الانتماء للوطن ، وللإنسانية ، وللآراء الصائبة ، والأشياء الجميلة .
- العيب ، ليس مجرد تعرية جزء من جسد امرأة ، لكن العيب ألا تمارس المرأة حريتها ، أو تعامل هي أو أى إنسان آخر ، بطريقة تحط من قدرها .
- الشر ، ليس مجرد الأذى من اعتداء أحد على آخر بالضرب ، أو السرقة ، أو الكذب ، وخلافه ، لكن عدم مقاومة القبح شر ، وتشويه الجمال شر ، والانتقاص من حق أى إنسان شر ، وتزييف الإرادة شر . إن عدم اتباع إحساسنا الصادق شر ، إن تخلينا عن الجماعة شر ، إن عدم اهتمامنا بما

يدور حولنا شر .

ولا نريد أن نستبدل بالسذاجة ، وضيق المفهوم ، الفجاجة والمباشرة ، لكن على تشكيل القصة أن يشي بما يراد قوله .

وفى الأعمال التى استعرضناها ، لاحظنا أخطاء متكررة ، ومشتركة ، بين كثير من الكتاب :

- التزيد والتفسير .
- كلمات أعلى من مستوى إدراك الأطفال ، وليست مفهومة من السياق ، ولا تدفع للسؤال .
- الأخلاق والمعلومات ، من منطلق أنه يجب تربيتهم وتثقيفهم .
- عدم الاهتمام بالمنطق فى الحكاية أو القصة ، ربما من منطلق أنهم صغار ولا يعون شيئا .
- تقليدية المضمون وسذاجته .
- إهمال الحبكة .. وعدم الاهتمام بسبك ما يقص . ولست - بالطبع - أقصد الحبكة التقليدية : مقدمة وعقدة أو أزمة ثم انفراج .

إن الحبكة فى القص الحديث ، للكبار والصغار ، تنبع من صياغة الفنان للعمل ، مستشعرا ملمحا ، أو مدخلا خاصا كالقدرة على الهمس والتقاط شذرات النفس المراوغة ، مثلما فعلت فرجينيا وولف أو الحديث عما نراه أمامنا بوضوح ولا ندرك كنهه ، مثل رواية موت معلن لماركيز أو الإمساك بتلابيب ما يحدثه الزمن من تغيير فى الناس والأشياء كما فعل نجيب محفوظ .

والحبكة هى التى تعطى العمل حيويته ، وحركته (ديناميكيته) ، وبهذا المفهوم ، لكل عمل ، حبكته الخاصة ، أو سبكه الخاص ، وأفضل استخدام الكلمة الأخيرة .

جاء فى المعجم الوجيز ص ٣٠١ : سبك المعدن سبكا ، أذابه وخلصه من الخَبَث ، ثم أفرغه فى قالب . وقام الاستخدام الشعبى بتحويل الكلمة إلى المعنوى ، يقال : فلان سبك الدور علينا ، تُقال فى معرض السخرية ، أو فى معرض أن كلامه قدمه بطريقة (القالب أو الشكل) جعلته يخال علينا ، وإن كان بمزاجنا .. وأليس هذا ما يفعله الفن ..

بينما يأتى الاستخدام الشعبى لكلمة الحبكة فى معرض النهى عن التشدد أو التزمت ، يقال : لازم تحبكها ..

وكما نرى فاستخدام سبك أقرب لماهية الفن ، طبقا لروح الجماعة .. ونحن نريد للكاتب أن يسبك عمله ، بحيث يجعلنا نقبله ، لمنطقه المقنع ، فى ترتيب الحوادث داخله ، وطريقة تقديمه للشخصية ، أو الحدث ، فى تشكيل ممتع ، سوف تتحدد درجة إمتاعه ، طبقا لتوفيقه فى استخدام تقنيات مناسبة لعمله ، وطبقا لتخليصه من الخَبَث (التزيد والتكرار غير الفنى والمباشرة .. إلخ) .

وقد يكمن سبك قصص الأطفال فى :

- إشاعة الروح الفكهة واللطف كما فى قصص عبد التواب يوسف .
- وصف أدق تفصيل فى الظاهرة الطبيعية كما فى فى روايات صنع الله إبراهيم للصغار .
- استنطاق الحيوان - دون عسر أو كلفة - بالمشاعر الإنسانية ، كما فى

القصص العالمي والأساطير والتراث العربي .

***

و عن الرسوم المصاحبة للعمل الأدبي للطفل ، فينبغي أن تكون رسوماً تطلق الخيال ، وليست رسوما تقيده ، رسوما تطلق الفكر ، وليست حصره في موضوع العمل .

لا نريد فناناً يترجم النص إلى رسوم ، ولكن نريد فنانا يقدم إحساسه بالنص . نريد رسوما تعمق النص وتدفع للتأمل ، وتدرب حاسة النظر على رؤية الألوان والخطوط ، ليستشعر المشاهد التوافق والانسجام (الهارموني) .

إن الرسوم المصاحبة للنص ، ليست للزينة ، ولكن لجعل المتلقى أكثر إدراكاً للنص .

ليس المطلوب رسوما توضيحية ، مثل رسوم المعامل وأنابيب الاختبار ، لكن المطلوب استلهام القصة ، وجعلها أكثر قصاً .

ولا أوافق الرأي ، من يرى عدم وجود رسوم :

" رغم أني أنحاز إلى جانب ترك القصص الموجهة للأطفال الكبار دون لوحات ، أو رسومات إعمالاً لمبدأ إطلاق خيالهم الذى يتسع عند قراءة القصة ، فاللوحات المصورة المصاحبة ، تكون أكثر ملاءمة للأطفال في السن الأصغر ، أقل من ٦ سنوات" إيمان محمد إمبابي – جريدة الأهرام في ١ / ١٢ / ٢٠٠٢ .

فالرسوم تجعل الجمال محسوسا ، وتشبع فضول الدهشة ، وتطلق الخيال فيما وراءها ، حتى فى أدب الكبار .

إن المعادلة الصعبة ، هي أن يستلهم الفنان العمل الأدبي ، ويدل عليه ، وفي نفس الوقت يقدم إبداعه الخاص ، مستخدما لغة التصوير ليقدم لوحة تشكيلية لغتها التصميم وتناغم الألوان والضوء والظلال ، وليست لوحة تخبر بمقولة أدبية .

أصدقائي كتاب الأطفال .. علينا أن نضع فى الاعتبار أننا أمام أطفال ، قدرتهم على التذوق والاستيعاب عالية، بحكم نشأتهم في وسط ، المعلومات والتقنية فائقة الجودة ، عند أطراف أصابعهم.

وهذا يستدعي الجرأة ، والابتكار ، وتضمين العمل كل مناحي الحياة ..

وأن يكون كل شئ في خدمة العمل الأدبي ، المعلومات ، والأخلاق ، وأن نهتم بالتشكيل ، وسبك القص ، مهما كان سن المتلقى صغيرا .

باختصار .. كل شئ في خدمة فنية العمل الأدبي .. وليس العكس .

المحتــــوى

رقم الإيداع بدار الكتب
٥٢٥٢ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-6072-59-3
دار الإسلام للطباعة والنشر
٢٢٥٠٤٥٣ / ٠٥٠ - ٠١٢٢٦١٤٣٦٣